

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

ديوان المراثي

شعر

عبد الرزاق عبد الواحد

من الشعر العربي ١٨٦

ديوان المراثي

عبد الرزاق عبد الواحد

ديوان المراثي

شعر

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

من الشعر العربي

«١٨٦»

- ٤ -

يا شيخ غُرَيْتِنا

في رثاء الشاعر أحمد الصافي النجفي

هذي مَحَطَّاتُنَا، فامشي على مهلٍ
نُلقي على بعضنا تَسْأَلُ مُرْتَحِلِ
تَحِيَّةً رَبِّمَا.. وَجِدًا نَكَابِدُهُ
تَعَلَّةً.. نَظْرَةً مُبْتَلَّةَ الْمُقَلِ
نَقُولُ شَيْئًا، وَنَدْرِي فِي طَوِيَّتِنَا
أَنَا عَثْرْنَا، وَأَنَّ الْقَوْلَ لَمْ يُقَلِ
وَأَنْتِ يَا خُطْوَةً تَخْشَى هَوَاجِسَهَا
هَذَا طَرِيقُكَ مَهْمَا تُبْطِئِي تَصْلِي!

هذي مَحَطَّاتُنَا.. تَطْوِي الْحَيَاةُ بِنَا

مَفَاذَهَا بَيْنَ مَخْضُوبٍ وَمُشْتَعِلٍ

شَتَّى.. مَدَارَاتُنَا شَتَّى.. مَرَاقُنَا

شَتَّى، نَمُرُّ بِهَا مَرًّا عَلَى عَجَلٍ

مُحَاذِرِينَ الرِّضَا أَنْ يَطْمَئِنَّا بِنَا

كَيْلَا نُقَايِضَ لَفْحَ النَّارِ بِالْبَلْبَلِ!

حَتَّى إِذَا صَاحَ فِينَا صَائِحٌ شَخَصَتْ

مِنَّا الْعَيُونَ، وَلَاذَ السَّهْلِ بِالْجَبَلِ

وَنَلْتَقِيَ وَعِنَانٌ مِّنْ أَعْنَتِنَا

أَلْوَتٌ بِهِ فِكْبَا دَوَّامَةٌ الْأَجَلِ

أَوْلَاءِ نَحْنُ عَلَى عَلَاتِنَا سُدْمٌ

مَزْرُوعَةٌ الْعَيْنِ عِنْدَ الْمَعْبَرِ الْجَلَلِ

حتى إذا شقَّ لَمَاعٌ مَفَازَتَهُ
آلَتْ مَنَابِعُ عَيْنِيهِ إِلَى وَشَلِّ!
يا شَيْخَ غُرْبَتِنَا، لولا مُكَابِرَةٌ
تُمَيِّتُنَا، لَم نُلَاقِ الرِّيحَ بِالْأَسَلِ
وما ادَّعَى مُدَّعِينَا أَنَّهُ بَطَلٌ
لكنَّ يَمُوتُ على أُسْطُورَةِ البَطْلِ!

يا شَيْخَ غُرْبَتِنَا، تَبْقَى تُعَلِّمُنَا
حياةٌ مِثْلِكَ معنى المِوتِ فِي القُلُوبِ
معنى التَّنْفِردِ.. معنى أَن نَمُجَّ دَمًا
ولا نَمُوتُ.. ونَسْتَعْصِي على الكَلَلِ
هذي مَقادِيرُنَا، نَبْقَى نُصَرِّفُهَا
كما جُبَانًا، فَتَطْوِينَا على عَجَلِ

نَحْنُ البَعِيدُونَ إِلَّا عَنْ مَقَاتِلِنَا

فِي ذُرُوءِ اليَأسِ أَوْ فِي ذُرُوءِ الأَمَلِ!

* * *

تنهضُ بين الحقائق

في رثاء الشاعر حسين مردان

مُتَعَبَاتٌ خُطَاكَ إِلَى الْمَوْتِ
مَهْمُومَةٌ

يا حسينَ بنَ مردانٍ

لكنَّ تُكَابِرُ

أَيَقَظْتَ كُلَّ الْمَلَاجِيءِ

فَانهَزَمْتَ

مَنْ يَشَارِكُ مَيِّتًا مَنِيَّتَهُ يَا بَنَ مَرْدَانَ؟

مُنْجَرِدًا وَحَدَاكَ الْآنَ

يُحْشِرُ هَيْكُلَكَ الضَّخْمُ فِي ضَنْكَةِ الْمَوْتِ حَشْرًا
وَأَنْتَ تُكَابِرُ
كُلُّ الْمِيَاهِ تَعَثَّرَتْ فِيهَا لِتُطْفِئَ خَوْفَكَ
فَاشْتَعَلَتْ

مَوْحِشًا كُنْتَ
مُسْتَوْحِدًا
تَتَنَازَلُ عَنْ كُلِّ أَرْقَامِكَ الْمُسْتَبَاحَةِ
تُسْقِطُهَا

وَاحِدًا

وَاحِدًا

الطَّرِيقُ إِلَى الصِّفْرِ مُعْجِزَةٌ يَا بَنَ مَرْدَانَ
أَنْ تَمْلِكَ الدَّرَبَ وَحَدَاكَ

تَمْتَلِكِ النَّدَمَ الْمُتَقَرِّدَ وَحَدَّكَ
أَنْ تَلْتَقِي وَالَّذِي خَفَتَهُ الْعُمُرُ..
تَدْخُلُ دَهْلِيْزَهُ

إِنَّهَا لِحِظَةُ الْكَشْفِ

وَحَدَّكَ تَمْلِكُ أَنْ تَسْمَعَ الْآنَ
وَحَدَّكَ تَمْلِكُ أَنْ تَتَقَرَّى
وَوَحَدَّكَ تُبْصِرُ

تَعْلَمُ وَحَدَّكَ إِنْ كَانَ لِلْخَطْوِ مُرْتَكِزٌ
حِينَ يَفْتَقِدُ الْمَرْءُ أَقْدَامَهُ
حِينَ يَفْتَقِدُ الْأَرْضَ
تلك خصوصية الموت
تَمْلِكُهَا الْآنَ وَحَدَّكَ

تُحِبُّوْا إِلَيْكَ الْمَجَاهِيلَ
تَنْهَضُ بَيْنَ الْحَقَائِقِ
عُرْيَانَ
مَنْخَلَةً عَنْكَ كُلُّ ادِّعَائِكَ

إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الصِّفْرِ مُعْجِزَةٌ
إِنَّهُ الْخَوْفُ

عُمُرَكَ وَطَنَّتْ نَفْسَكَ أَنْ تَأْلَفَ الْخَوْفَ
لَكِنَّ حَجْمَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ
يُحَطِّمُ كُلَّ الْقِيَاسَاتِ
يُسْقِطُ كُلَّ الْمَعَابِرِ حَيْثُ التَّقَاتُ
سِوَى مَعْبَرٍ يَشْرَبُ إِلَى يَوْمٍ كُنْتَ صَغِيرًا

تلوحُ بهِ

حايِّ القَدَمينِ
مَهْدَلَّةً ياقَةَ الثَّوبِ مِنْكَ

تَمَرُّ عَلَيْهِ الْوَجْوهُ الَّتِي
وَالسِّنِّينُ الَّتِي
وَالنِّسَاءُ اللّوَاتِي..

وتأتي حسينَ بنَ مردان
مُنْسَدِلَ الشَّعْرِ لِلْكَتْفَيْنِ
عَصَاكَ الْغَلِيظَةَ تَضْرِبُ بَيْنَ دِيَالِي وَبَغْدَادِ
تَصْعَدُ مِعْرَاجَ قَوْسِكَ

كَانَتْ عَمُودِيَّةَ الْمُرْتَقَى كُلُّ أَقْوَاسِنَا يَا بَنَ مِرْدَانَ
تَذَكَّرُ كَيْفَ تَقَبَّلْنَا الْمَوْتَ؟

أَسْمَاؤُنَا كُلُّهَا ذَاتَ يَوْمٍ عَقَدْنَا عَلَى شَجَرِ الْمَوْتِ أَجْرَاسَهَا
وَانْتَظَرْنَا الرِّيحَ

ديوان المراثي - م ٢

وَكَانَتْ تَهَبُّ الرِّيحَ
تَهَبُّ..

أَكُنَّا نُبَالِغُ؟

أَمْ أَنَّهَا سَنَوَاتُ الْبَطُولَةِ
يَنْكَسِرُ الْمَرْءُ مِنْ بَعْدِهَا سَلَامًا
ثُمَّ يَزْحَفُ لِلْخَوْفِ؟

تَذَكَّرُ كَيْفَ تَقَبَّلْنَا الْمَوْتَ؟؟

ما تَصْفِرُ الرِّيحُ
إِلَّا وَيَسْمَعُ واحِدُنَا رَنَّةً بِاسْمِهِ
ثُمَّ يَمْضِي

ولكنَّها سَنَوَاتُ الرِّضَا يا بنَ مردان
البَشْرُ المَاءُ
يَعْقِدُ أَجْرَاسَهُ فِي مَهَبَاتِ كُلِّ الرِّيحِ
وَيَخْتَبِيءُ الجَرَسُ المَوْتَ
أَصْفَرُ أَجْرَاسِهِ الجَرَسُ المَوْتَ

أَفْنَيْتَ عُمْرَكَ تُحْكِمُ تَعْلِيْقَهُ
وَتُوسِعُهُ
ثُمَّ تُوسِعُ حِمْلَاقَ عَيْنِكَ فِيهِ
فَتَفْزَعُ..!

ماذا جنيتَ ابنَ مردان؟
طفلاً لهوتَ بدميةِ عمركَ
طفلاً سئمتَ، فحطمتها
حُلماً كان أن تشتري بدلةً
حُلماً عشتَ أن صرتَ مُستوظفاً
حُلماً أن غدوتَ
ولو مرةً

دائناً لا مديناً

ولكنه يا بنَ مردان دقَّ
ولم تتسخْ بعدُ أكمامُ بدلتكِ الحُلْمِ

دقَّ

وما زال دَيْنُكَ

مَا حَانَ مَوْعِدُ إِيفَائِهِ

دَقَّ نَاقُوسُ مَوْتِكَ

يَا أَيُّهَا الْإِمْبِرَاطُورُ (*)

يَا أَيُّهُذَا الْمُوظَّفُ مِنْ قَبْلِ شَهْرَيْنِ..

* * *

(*) كان يحلو لحسين مردان أن يسمي نفسه دائماً «إمبراطور الأدب» .

غَرَقُ الطُّوفَانِ..

شهقةٌ على جثمان العالم العراقي
الكبير الدكتور عبد الجبار عبد الله

وانسابَ في صَمْتٍ، وفي جَلالٍ
تَلَقَّتْ تَسألُ عن مَنبَعِ الجِبالِ
أيُّ ذُراها؟..

رَفَعَتْ رُؤوسَها الأَهورَ

وابتَسَمَتْ،

رَنَتْ إليه في اعتزازٍ

أَجْهَشَتْ

وظَلَّ يَنسابُ مَهيبَ المَوجِ

في صَمْتٍ

وَفِي جَلالٍ
مُعَمَّقاً مَجْرَاهُ
مُغَالِباً مَجْرَاهُ
مُتَّسِعاً فَاضَ عَلَى مَجْرَاهُ
ثُمَّ اسْتَقَرَّ حَيْثُ لَا تَضْطَرِبُ الْمِيَاهُ
وَحَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْمِيَاهُ..

مَاءٌ وَلَا جَفَافٌ
لَمْ تَثِبِ الْعَيُونُ عَبْرَهُ إِلَى ضِفافِ
الْأَرْضِ كُلِّهَا غَدَّتْهُ،
اِحْتَضَنْتْ مَسارَهُ
تَرَصَّدَتْ مَدارَهُ
أَعْطَتْهُ
لَمْ يَأْخُذْ،

وَأَعْطَى كُلَّ مَا لَدَيْهِ
لَمْ يَسْبِرُوا قَرَارَهُ
لَكِنَّمَا رَوَّاحُ الْعِمَارِهِ.. (*)
حَيَاتُهُ..

كَأَيِّمَا ضِيَاءً
أَنْجَبَهُ احْتِرَاقٌ
أَرْضَعَهُ احْتِرَاقٌ
وَهَجَّهُ احْتِرَاقٌ
أَطْفَأَهُ احْتِرَاقٌ

أَغْفَى

(*) العِمَارَةُ: مدينة في جنوب العراق، ولد فيها عبد الجبار عبد الله، وعاش طفولته وصباه.

تَعَرَّتْ شَهَقَةً تَمَلَأُ عَيْنَيْهِ

تَلُوبُ

تَطْرُقُ الْأَبْوَابَ

تَسْتَصْرِخُ الْوُجُوهُ،

تَسْتَشْهَدُ،

تَبْكِي،

تَذْبِحُ الْأَهْدَابَ

وَأَفَلَتِ مَرُوعَةً تَحْمَلُ عَيْنَيْهِ،

تَكَادُ تَشْرَبُ الْعِرَاقَ

تَطْوِي الْمَسَافَاتِ،

تَذُودُ الْمَوْتَ،

تَعْدُو

تَشْرَبُ الْعِرَاقَ

وَانْكَفَأَتْ..

تَدَحْرَجَتْ عَيْنَاهُ رَطْبَتَيْنِ
وَاسْتَقَرَّتَا فِي تَرِيَةِ الْعِرَاقِ..

وَطَاطَأَتْ رُؤُوسَهَا الْأَهْوَارَ
وَأَجْهَشَتْ عَلَى ضِفَافِهَا حَنَاجِرُ الْقَصَبِ

تَأَمَّلْتَهُ وَهُوَ يَنْسَابُ بِبَلَا شُطَّانٍ
يَدِفُ حَوْلَهُ ضَبَابٌ هَائِلٌ الْأَكْفَانَ
وَتَابَعْتَهُ..

غَامَ فِي أَحْدَاقِهَا الْأَمْسُ،
تَتَأَى
تَابَعْتُ أَحْدَاقَهَا الْمَجْرَى
هَمَى الْأَمْسُ رِذَاذًا

عَيْنُهَا مَشْدُودَةٌ عَبَّرَ رَذَاذِ الْأَمْسِ
الْمَجْرَى ضَبَابٌ هَائِلٌ الْأَكْفَانِ يَنَأَى
انْهَمَرَ الْغَيْثُ عَنِيفاً

غَرِقَتْ أَحْدَاقُهَا فِي الْأَمْسِ،

غَامَتْ

تَابَعَتْهُ

تَابَعَتْهُ

تَابَعَتْهُ.....

جَدَوْلٌ صَغِيرٌ

يُوشِوشُ الْأَمْوَاجَ فِي شَوَاطِيءِ الْعِمَارَةِ

مُسْتَوْحِداً نَحِيلٌ

مُنْسَرِباً بَيْنَ جُذُورِ الْعُشْبِ وَالنَّخِيلِ

يُؤْنِسُهُ خَرِيرُهُ..

وتابعتهُ

تابعتهُ

تابعتُ..

تذكَّرتُ طفلاً يَتِيماً حايِّ الأقدامِ

على يديها نامَ

يرتَعشُ الشِّتاءُ كُلُّهُ بِرُكْبَتَيْهِ

يَندَسُ في عظامِهِ

يَجْمَدُ في يَدَيْهِ

فينحني عوداً على كتابهِ الصَّغِيرِ

وزَحَّتْ الأمطارُ..

تذكَّرتُهُ يافِعاً

صَامِتَةٌ خُطَاهُ
وَاسِعَةٌ خُطَاهُ
تَذَكَّرْتُ كَمْ شَرِبْتُ عَيْوُنَهَا خُطَاهُ
حَتَّى غَابَ فِي الضِّيَاءِ
وَحَوْلَهَا حَنَاجِرُ الْقَصَبِ
تَشْهَقُ بِالدُّعَاءِ
وَإِنْسَابَ نَحْوَهَا يَنَابِيعَ مِنَ الضِّيَاءِ
عَادَ إِلَى وَدْيَانِهَا سَمَاءً
عَادَ إِلَى شُطْرَانِهَا سَمَاءً
عَادَ إِلَى أَحْضَانِهَا بَحْرًا مِنَ الضِّيَاءِ
وَإِدِعَةَ خُطَاهُ
ثَابِتَةً خُطَاهُ
هَائِلَةً خُطَاهُ
فَزَعْرَدَتْ كُلُّ شِفَاهِ الْقَصَبِ

واحتضنته،

قبّلت خُطاه

وزخّت الأمطارَ

عَنيفَةً

ثمّ تلاشى الغيمُ

شَفَّ

اغرورقت أهداقها بالضوء

ذابَ الأمسُ

شَفَّ

ابتلعت دموعها الأهوارَ

ثمّ أفاقت..

كان ينسابُ بلا شُطَّانٍ

يَدِفُ حَوْلَهُ ضَبَابٌ هَائِلٌ الْأَكْفَانَ
أَمْوِجُهُ تَعَثَّرُ بِالضَّبَابِ
أَضْوَاؤُهُ يَشْرِبُهَا الضَّبَابُ
يَنَسَابُ فِي الضَّبَابِ
يَنَسَابُ..

لا شيءَ سوى الضَّبَابِ..

حِينَ تَمُرُّ الرِّيحُ فِي شَوَاطِيءِ الْعِمَارَةِ
يَصْعَدُ مِنْ حَنَاجِرِ الْقَصَبِ
يَنْثَالُ مِنْ ذَوَائِبِ النَّخِيلِ
صَوْتُ نِدَاءٍ يُشْبِهُ الْعَوِيلَ:

أَوْحَشَتْ عَبْدَ اللَّهِ
صَوَّحَتْ عَبْدَ اللَّهِ

يا والدَ الطُّوفانِ
قد غَرِقَ الطُّوفانُ
لا نِمَّتَ عَيْناً
غَرِقَ الطُّوفانُ
لا نِمَّتَ عبدُ الله
لا نِمَّتَ عبدُ الله
لا نِمَّت..

* * *

يا وارفاً الظلّ

في عبد الجبار عبد الله

عام ١٩٩٣

ذَكَرَاكَ، وَاللَّيْلُ، وَالْأَمْطَارُ، وَالسُّحُبُ
وَصَوْتُ مِزْرَابٍ جَارِي وَهُوَ يَنْتَحِبُ
وَوَحْشَةٌ الْمَوْتِ، وَالنَّجْوَى، وَمَكْتَبَتِي
وَأَنْتَ مِثْلَ انْسِرَابِ النُّورِ تَتَسَرَّبُ
كَأَنْمَا مِنْ ضَمِيرِ الْغَيْبِ تَسْأَلُنِي
مَاذَا سَتَتَفَعُّكَ الْأَوْرَاقُ وَالْكَتُبُ!

لَابَأْسَ.. أَدْرِي بَأَنِّي بَالِغٌ أَجَلِي
أَبَا سِنَانٍ.. وَأَنِّي مُوَحَّشٌ، تَعِبُ
مُسْتَنْزَفٌ.. وَشَرَايِينِي، وَأُورِدَتِي
دَمِي بِهَا كَالْتِهَابِ الْجَمْرِ يَلْتَهَبُ
أَدْرِي، وَأَدْرِي بَأَنَّ الْعُمَرَ مِنْ قَلَمِي

مِثْلَ الْمِدَادِ عَلَى الْقِرْطَاسِ يَنْسَكِبُ

وَأَنَّ قَلْبِي مِنْ وَجْدٍ، وَمِنْ قَلْقٍ
وَجَيْبَ جَنَحِ الْقَطَا فِي أَضْلَعِي يَجِبُ!

هَلْ عِشْتَ إِلَّا لِهَذَا؟.. أَوْ لِأَنْبَلٍ مِنْ
هَذَا؟ فَأَيُّ اضْطِرَابٍ كُنْتَ تَضْطَرِبُ؟!

أَنْتَ الَّذِي كُنْتَ عُوْدًا لَا وَقَاءَ لَهُ
مِثْلَ السَّنَابِلِ، إِلَّا حَبُّهُ الرُّطْبُ!

أَعْطَى لَهَا عُمُرَهُ، حَتَّى إِذَا نَضَجَتْ
أَلَوْتُ بِهَا الرِّيحُ، وَالتَّائْتُ بِهَا التُّرْبُ!

طُوبَاكَ.. فِي كُلِّ أَرْضٍ مِنْكَ سُنْبَلَةٌ
وَنَجْمَةٌ.. وَنَهْيَرٌ مَأْوُهُ عَذْبُ!

يا وارِفَ الظِّلِّ.. يا نَبْعاً جَدَاوِلُهُ
قَلْبُ العِمَارَةِ فِي شُطَّانِهَا يَثِبُ!
نَيْفٌ وَعِشْرُونَ مَرَّتْ وَهِيَ وَالهِةُ
يَيْكِي بِأَهْوَارِهَا البَرْدِيُّ والقَصَبُ!
اللَّهُ.. فِي لِحْظَةٍ كَيْفَ انطوى وَهَوَى
العِلْمُ، والحِلْمُ، والأخلاقُ، والأدبُ؟!
وكَيْفَ أَهْلُكَ مَا مَادَتْ مَنَازِلُهُمْ
كَأَنَّهُمْ مَا رَأَوْا هَوْلًا، وَلَا نُكِبُوا
وكَيْفَ لِأَنَّ لَا يَدْرُونَ عَنكَ سِوَى
أَنَّ ابْنَهُمْ عَالِمٌ، قَبْلَ اسْمِهِ لُقَبُ!
أَمَّا النُّبُوءَةُ.. أَمَّا مَا نَذَرْتَ لَهُ
شَتَاتَ عُمْرِكَ حَتَّى شَفَّكَ العَطَبُ

شَفَاءً.. وَحَتَّى نَشَرْتَ الرُّوحَ أَشْرَعَةً
وَاللَّيْلَ بَحْرًا، وَرَكِبَ المَوْتَ يَقْتَرِبُ
وَأَنْتَ تَخْتَصِرُ الأَبْعَادَ هَائِلَةً
وَقَدْ تَلَاقَتْ عَلَى رَاحَتِكَ الشُّهُبُ
فَمَا لَهُمْ حِصَّةٌ فِيهِ، فَعِنْدَهُمْ
لَا يَحْكُمُ العِلْمُ لَكِنْ يَحْكُمُ الذَّهَبُ!
وَعِنْدَهُمْ لَيْسَ لِلأَحْلَامِ مِنْ سَبَبٍ
لَكِنْ لِأَصْغَرِ رِيحٍ عِنْدَهُمْ سَبَبُ!
وَأَنْتَ تَحْلُمُ.. أَتَرَعَّتِ الدُّنَا حُلْمًا
حَتَّى لَكَادَتْ تَهَاوَى دُونَكَ الحُجُبُ
وَجَاءَكَ المَوْتُ.. هَا أَهْلُوكَ.. لَا
وَلَا اسْتَفِزُّوا، وَلَا رِيْعُوا، وَلَا رُعِبُوا

يَعْلَمُونَ بِهَذَا الْحَفْلِ أَنْفُسَهُمْ
أَنْ قَدَّمُوا لَكَ بِاسْمِ النَّاسِ مَا يَجِبُ
وَأَنْتَ تَدْرِي بِأَنَّ الدَّارَ تَسْكُنُهَا
بِيعَتٌ، وَقَبْرُكَ هَذَا.. مُوحِشٌ، خَرِبٌ
وَأَنَّ كُلَّ الَّذِي أَبْدَعْتَ مِنْ غُرْرِ
لِلْعِلْمِ، تَحْتَ الْغُبَارِ الْآنَ يَحْتَجِبُ
قُلْ لِي إِذْنٌ سَيِّدِي.. هَلْ أَنْتَ مَيِّتُهُمْ
أَمْ الَّذِينَ تُوَفُّوْا أَهْلَكَ النُّجُبُ؟!
وَهَلْ كَبُرْتَ بِهِمْ؟.. أَمْ هُمْ كَعَهْدِهِمْ
كَبِيرُهُمْ بَيْنَهُمْ عُرْيَانٌ مُسْتَلَبٌ!
أَيَعْلَمُونَ بِأَنَّ التُّرْبَ تَسْكُنُهَا

يَوْمًا لَهَا يَتَمَنَّى النِّجْمُ يَنْتَسِبُ!

وَأَنَّ كُلَّ نَهَارٍ ضَاعَ بِه
أَوْلَادُهُمْ عَنْهُ يَوْمًا مَا سَتَحْتَرِبُ

وَأَنْتَهُمْ.. بَيْنَمَا تَبْقَى تُضِيءُ لَهُمْ
سَيَذْهَبُونَ.. فَلَا نَبْعَ، وَلَا غَرْبَ

لَا مَالَهُمْ.. لَا مَتَاعٌ يَزِدُهُونَ بِهِ
يَبْقَى.. وَلَكِنْ سَيَبْقَى وَجْهَكَ الْحَدْبُ!

يَا جَذْوَةَ الْعِلْمِ.. يَا أَعْلَى مَرَاتِبِهِ
إِذَا اسْتُفْزِزَتْ بِهِ الْأَلْقَابُ وَالرُّتَبُ

هَلْ أَنْصَفْتِكَ مَرَاقِي الْعِلْمِ كُنْتَ لَهَا
مُؤَسَّسًا، عُمُرُهُ يُعْطَى وَيَحْتَسِبُ!

أَمْ أَنَّهُا أَنْكَرَتْ بَانِي مَدَارِجِهَا
وَمَنْ قَضَى عُمُرَهُ فِيهِنَّ يَغْتَرِبُ؟

إِذَنْ فَمَنْ ذَا سَيُعْطِي الْأَرْضَ رَوْنَقَهَا
أَبَا سِنَانٍ إِذَا مَا أَهْلُهَا ذَهَبُوا؟

وَمَنْ يَعِيدُ إِلَى الدُّنْيَا مَرُوءَتَهَا
إِذَا بَنُوهَا عَلَى آبَائِهِمْ شَغِبُوا؟

وَكَيْفَ نُمْسِكُ بِالْمِيزَانِ نَرْفَعُهُ
إِنْ لَمْ نَكُنْ بِبِنِقَابِ الْحَقِّ نَنْتَقِبُ؟

إِذَا كَفَرْتَ بِبَيْدِي كُنْتَ تَرْضَعُهُ
فَأَيُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ لَسْتَ تَنْتَقِبُ؟!

أَبَا سِنَانٍ أَرَانِي مُوقِظاً وَجَعِي

وما لي الآن في إيقاظه أرب

لكنه لمصب أنت تعرفه

يجري، ونحن كلانا فيه نسطح

أنا به محض إنسان.. وكنت به

قديس عصر تلاقى حوله النوب!

عذراً إذا كنت أدني منك مجمرتي

أبا سنان، وأنت الهادي العذب

أنت الذي ما درى يوماً محدثه

عن همه، أي جرح منه يقترب

وأن هذا الذي يصغي بلا ضجر

إليه، أوجاعه أم له وأب!

فَإِنْ أَكُنْ هَجْتُ جُرْحِي فَهُوَ مِنْكَ ذِمًّا
أَلَيْسَ يَجْمَعُنَا مِنْ جُرْحِنَا نَسَبٌ!
أَنْعِمَ مَسَاءً، وَطِبَّ نَفْسًا بِأَفْرُخِنَا
أَبَا سِنَانٍ.. لَقَدْ غَطَّاهُمْ الزَّغَبُ
وَنَسَأَلُ اللَّهَ، إِنْ طَأَلَتْ قَوَادِمُهُمْ
وَأَبْعَدَتْ عَنْهُمْ أَهْوَالَهَا الرِّيبُ
أَنْ يَهْتَدُوا لِمَسَارِ النُّورِ سِرَّتَ بِهِ
وَكُلُّهُمْ بِشُعَاعِ مِنْكَ يَنْجَذِبُ!

* * *

يا أيُّها القديس يحمل صمتهُ حملَ الأذان!

في ذكرى عبد الجبار عبد الله

عام ١٩٩٥

هَذَا وَأُنْكَ لَا أُوَانِي وَرِهَانُ مُجْدِكَ لَا رِهَانِي
وَصَدَاكَ أَنْتَ الْمَالِيَّةُ الدُّنْيَا.. فَمَا جَدْوَى بَيَانِي؟
مَرْمَاكَ أَوْسَعُ مِنْ يَدِي وَتَرَاكَ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِي
وَسَانَكَ أَبْعَدُ فِي الْمَرْوَةِ أَنْ أَرَاهُ، وَأَنْ يَرَانِي
وَحَضْرُوكَ الْبَاقِي.. وَكُلُّ حُضُورٍ مَنْ وَلَدُوكَ فَانِي!
يَا مَنْ لَهُ كُلُّ الْمَكَانِ وَلَيْسَ يَمْلِكُ مِنْ مَكَانٍ!

هذا أوَانِك لا أوَانِي وَدِنَانُ عُرْسِك لا دِنَانِي
فإِذَا أَتَيْتُكَ زَائِراً فاعذُرْ رَفِيفَ هَوَى دِعَانِي
فِي كُلِّ عَامٍ يَشْرَبُ دَمِي إِلَيْكَ أبا سِنَانِ
لِي مَهْرَجَانٌ فِيكَ يَبْدَأُ قَبْلَ بَدءِ المَهْرَجَانِ!
وَيَهَيْبُ بِي مَرْقَاكَ.. أَصْعَدُهُ، فَيَعْتَرُّ بِي عِنَانِي
مَبْهُورَةً أَنْفَاسُهُ مَا بَيْنَ زَهْوٍ وَافْتِتَانِ

يَا أَيُّهَا القُدِّيسُ يَحْمِلُ صَمْتَهُ حَمَلَ الأَذَانِ!
وَتَدورُ عُمُقَ الكَوْنِ أَنْجُمُهُ.. وَنَحْسَبُهَا دَوَانِي!
وَأَقُولُ قَدَ القَاكَ.. قَدَ يَرْضَى زَمَانُكَ عَن زَمَانِي!
فَأَرَاكَ.. أَلْمَحُ مَقَلَّتِيكَ عَلَي كِتَابِكَ تَحْلُمَانِ!

وأرى لجسمك وهو مثل الطيف.. يعبر في ثواني
فأحس كل مروة الـ دنيا تغلغل في كياني!
وأحس ضورك وهو يملؤني، ويمسح من دخاني!
ويعيد لي صفوي.. ويمنحني شجاعة أن أعاني!

عذر اليراع أبا سنانٍ إن تلجج في بناني
أنا كلما لامست عالمك الوديح بعنفواني
أحسست أن علي أن أغضي، وأخلع صولجاني!
فأنا أمام سني كأن الله شاء به امتحاني
وأمام خلق ما رأيت له بهذي الناس ثاني
يا أنبل الدنيا، وأحلمها.. ويا تبت الجنان

إِنِّي رَأَيْتُكَ وَالْحَتُوفُ مِنْ السَّنَانِ إِلَى السَّنَانِ!
 جَمًّا هَدُوؤُكَ وَالْفَحُولُ يُوودُهَا جَذَبُ الْعِرَانِ!
 فِي قَلْبِ عَاصِفَةٍ وَأَنْتَ عَلَى شُحُوبِكَ، كَالِيْمَانِي!
 تُحْصِي مَوَاقِعَ أَصْدِقَائِكَ بِالِذِّقَاتِ وَاللَّيْوَانِي!
 مِنْ أَيِّ مَائِكَ وَهُوَ ثُرٌّ أَسْتَزِيدُ أَبَا سِنَانِ؟
 سَأَنْتُ قَافِيَتِي.. عَسَانِي فِيكَ أَطْمَشُهَا عَسَانِي! (*)
 فَأَقُولُ جِئْتُ مُحَاوَلًا أَكْسُوهُ.. هَا هُوَ قَدْ
 قَالُوا.. وَأَنْتَ تَمُوتُ.. كَانَتْ مَقَلَّتَاكَ تُرْفِرْفَانِ
 كَحَمَامَتَيْنِ غَرِيْقَتَيْنِ عَنِ الْعِمَارَةِ تَبْحَثَانِ!

(*) أَطْمَشُهَا: كَلِمَةٌ مَنَدَائِيَّةٌ مَعْنَاهَا «أَعْمَدُهَا».

وَبَقِيَتْ حَتَّى آخِرِ الْأَنْفَاسِ تَلْهَجُ فِي حَنَانِ
لَوْ نَسَمَةٌ هَبَّتْ بِقَلْعَةٍ صَالِحٍ لَكَ بِالْأَمَانِ! (*)
لَوْ نَهَرُهَا نَادَاكَ آخِرَ مَرَّةٍ.. وَالشَّاطِئَانِ
لَوْ طَوَّقَاكَ فَنِمْتَ فِي حُضْنَيْهِمَا وَالْفَجْرُ دَانِي!
فَتَرَى إِلَى شَمْسِ الْعِرَاقِ وَمُقَاتَاكَ تَحَدِّرَانِ!
مَشْبُوبَةٌ هِيَ فِي الْمِيَاهِ وَأَنْتَ مَشْبُوبُ الْمَحَانِي!

عُذْرَ الْيَرَاعِ أَبَا سَنَانٍ إِنَّ بَرِيَّتُ، وَإِنْ بَرَانِي
أَنَا فِي رِحَابِكَ وَالْعَيُونُ جَمِيعُهُنَّ لَنَا رَوَانِي
شَمْسَانِ مَنْدَائِيَّتَانِ بِكُلِّ حُبٍّ تُشْرِقَانِ!

(*) قلعة صالح: قضاء من أفضية ميسان عاش فيها عبد الجبار
عبد الله طفولته وصباه.

تَهَبَّانِ لِلْبَشْرِ الْغَضَارَةَ، وَالْمَحَبَّةَ، وَالْأَمَانِي
وَبِكُلِّ مَا يُغْنِي الْهَوَى جَرِيَانَ دَجَلَةَ تَجْرِيَانَ!
فَبِأَيِّ آلَاءِ الَّذِي أُعْطِيْتُمَاهُ يُكْذِبَانِ!

* * *

يا شيخَ شعري

في رثاء الجواهري
كتبت في اليوم الثالث لوفاته

لا الشُّعْرَ أبكيه، لا الإبداع، لا الأدبَا
أبكي العراق، وأبكي أُمَّتِي العَرَبَا

أبكي على كلِّ شَمْسٍ أَهَدَرُوا دَمَهَا
وبَعْدَمَا فَقَدُوهَا أَسْرَجُوا الحَطَبَا!

أبكي على وَطَنٍ يَبْقَى الأديبُ بِهِ
ليسَ الغَرِيبُ، ولكنَّ أهْلُهُ غُرَبَا

أبكي على النَّخْلِ يا مَنْ أَنْتَ صَاحِبُهُ
وَأَنْتَ سَاقِيهِ قَرْنًا مَاءَكَ العَذْبَا

وراح حتى العِدا يَجنونُهُ رُطباً
وأنتَ تَعْلِكُ منه السَّعْفَ والكَرْبَا!

أبكي لأهوارِ أهلي الآنَ بَلَّعُهَا
يَبْكِي فَيُبْكِي بِهَا البَرْدِيَّ والقَصَبَا

وَإِذْ مُهَاجِرَةُ الأَطْيَارِ تَبْلُغُهَا
تَبْكِي وَتَمَعِّنُ عن قِيَعَانِهَا هَرَبَا!

أبكي الفُراتين.. هل تَدْرِي مياهُمَا
بأنَّ أعظَمَ مَنْ غَنَّى لَهَا ذَهَبَا؟

لا (دجلةُ الخير) أَلَوْتَ مِنْ أَعْنَتِهِ
ولا الفُراتُ بِخَيْلِ المَوْتِ فِيهِ كَبَا

كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا نَدِيمَهُمَا
ولا أَدَارَ هُنَا كَأَسَاءَ، ولا شَرِبَا

ولا جرى دمه ما سال دمه^{ما}
ولا تنزي دماء^{كلم} اختضبا

يا حامل السبع والتسعين^{معجزة}
أقلها أنها لم تعرف^{الربا}

لكنها عمر قرن كامل^{عرفت}
أن تستفز، وأن توري^{الدنا} غضبا!

يقال أهرب ما في الموت^{وحشته}
نفسى فداك، هل استوحشت^{حين}

وهل شعرت^{اغتراباً} في معيته؟
قضيت^{عمر}ك يا مولاى^{مغتربا}!

وهل صمت^{اضطراباً}، أو مجانفة؟

أَمْ كُنْتَ أَبْلَغَ أَهْلِ الْأَرْضِ مُنْشَعِبًا؟!

وَهَلْ تُوقِّيتَ فِعْلًا، أَمْ وُلِدْتَ بِهِ؟!

إِنِّي رَأَيْتُكَ مِلءَ الْمَوْتِ مُنْتَصِبًا

حَتَّى لَقَدْ ضَجَّتِ الدُّنْيَا بِمَا نَشِبْتَ

أَظْفَارُ مَجْدِكَ فِيهِ لَا بِمَا نَشِبْنَا!

يَا شَيْخَ شِعْرِي، وَيَا شَيْخِي وَشَيْخَ دَمِي

مَنْ لِي بِأَنْ أَفْتَدِيكَ الْآنَ مُحْتَسِبًا؟

مَنْ لِي بِأَنْ أُرْجِعَ الْأَيَّامَ دَوْرَتَهَا

فَأَسْتَعِيدَكَ بَحْرًا زَاخِرًا لَجِبًا

يَلْوِي يَدَ الرِّيحِ لَا تَلْوِي أَعْنَئَهُ

وَيَلْطِمُ الْجَبَلَ الْجَلْمُودَ مُحْتَرِبًا

سَبْعُونَ عَامًا، وَلِلطَّاعُونَ رَهْبَتُهُ
مَا رَأَى النَّاسُ، أَيُّ النَّاسِ، مُرْتَهَبًا

بَلْ وَالْجَاءَ كَوَلُوجِ الْمَوْتِ دَوْرَهُمْ
مُهْتَكًا عَنْهُمْ الْأَسْتَارَ وَالْحُجُبَا

مُغَاضِبًا مِثْلَ صِلِ الرَّمْلِ، مُنْصَلِتًا
لِلرَّيْحِ.. لَا عَطَشًا تَشْكُو وَلَا سَغْبًا

فِي حِينِ بَيْتِكَ أَغْصَانٌ مُهْدَلَّةٌ
تَذْوِي، وَأَجْنَحَةٌ أَبْقَيْتَهَا زُغْبًا

مُرْفِرِفَاتٍ عَلَى الْأَوْجَاعِ، دَامِيَّةٌ
وَأَنْتَ تَرْنُو إِلَيْهَا مَشْفِقًا حَدْبًا

وَكَلَّمَا مَالَ مِيزَانَ الْأَبِ انْتَفَضَتْ
أَبْوَةٌ الشُّعْرِ فِي جَنِيكَ فَاثْقَلَا!

قالوا هَرِمْتَ.. وَعُمْرِي لِمَ أَجِدُ هَرِمًا
مَرَاهُ يَمْنَحُ حَتَّى الْمَيْتِينَ صِبَا!

وَدَدْتَ وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيكَ مِنْ عُمْرِي
عُمْرًا لِيُصْبِحَ لِي إِنْ أَنْتَسِبَ نَسَبًا!

يا ذا الْمُسْجَى غَرِيبًا وَالْعِرَاقُ هُنَا
يَشُقُّ قُمْصَانَهُ فِي الْبُعْدِ مُنْتَجِبًا

وَتَصْرَخُ النَّجْفُ التَّكْلَى مُرَوَّعَةً
رَجَّعُ الْمَآذِنِ فِيهَا يُفْزِعُ الْقُبَا

وَأَنْتَ تَتَأَى فَتَلْوِي أَلْفَ مِئْذَنَةٍ
رِقَابَهَا، وَيَضْحُجُّ الصَّحْنُ مُضْطَرِبًا!

وَلِلْجِبَالِ بِكُرْدِسْتَانَ نَائِحَةٌ

تَبْكِي الْيَنَابِيعُ، وَالغَابَاتُ، وَالرَّشْبَا
مِنْ بَيْرِهِ مَكْرُونٌ يَمْتَدُّ الْعَوِيلُ بِهَا
حَتَّى تَرَاهُ عَلَى حِمْرَيْنِ مُنْسَكِبَا!
أَمَّا الْجَنُوبُ فَيَدْرِي الْمَاءُ مَا هَجَعَتْ
حِمْرِيَّةٌ فِيهِ، أَوْ هَبَّتْ عَلَيْهِ صَبَا
إِلَّا جَرَتْ أَدْمَعًا خُرْسًا شَوَاطِئُهُ
وَجَاءَهَا دَمْعُ كُلِّ النَّخْلِ مُنْسَرِبَا!

أَبَا فُرَاتٍ.. أَبَا رُوْحِي وَقَافِيَتِي
وَمَا عَرَفْتُ لِأَوْجَاعِي سِوَاكَ أَبَا
مِنْ يَوْمٍ فَتَحَّتْ عَيْنِي وَالْعِرَاقُ دَمٌ
يُطْوَى فَتَهْتِكُ عَنْ طُوفَانِهِ الْحُجْبَا

مُعَاتِباً تَارَةً.. مُسْتَكْرَماً أَبَداً
مُغَاضِباً.. سَاخِراً حِيناً، وَمُكْتَبِياً

لَكِنْ تَظَلُّ عَلَى الْحَالَاتِ أَجْمَعِهَا
شَوْكَ الْعِرَاقِ الَّذِي يُدْمِي إِذَا احْتُطِبَا!

عَلَّمْتَنِي مُذْ شَرَايِينِي بَرْتٌ قَلَمِي
كَيْفَ الْأَدِيبُ يُلَاقِي مَوْتَهُ حَرِياً

وَكَيْفَ يَجْعَلُ مِنْ أَعْصَابِهِ نُذْراً
حِيناً، وَحِيناً نُذُوراً كَلَّمَا وَجَبَا

وَكَيْفَ يَصْعَدُ دَرْبَ الْجَمْرِ مُشْتَعِلاً
مُجَانِفاً.. عَصَبٌ يُدْمِي بِهِ عَصَبَا!

عَلَّمْتَنِي كَيْفَ أُهْدِي لِلْعِرَاقِ دَمِي
شِعْراً، وَأَخْشَى الْعِرَاقِيِّينَ إِنْ نَضَبَا!

[مِنْ قَبْلِ قَرْنٍ لَوْ أَنَا نَبَتَغِي عِظَةً
وَعَظَّتْنَا أَنْ نَصُونَ الْعِلْمَ وَالْأَدَبَا!]

* * *

سلامُ أبا فحري عليك

في رثاء السيد مرزه القزويني

١٩٦٤

أَلَا إِنَّ خَطْبَ الْمَوْتِ فِيكَ جَلِيلٌ
وَبَعْدَكَ كُلُّ الذَّاهِبِينَ قَلِيلٌ

وَبَعْدَكَ كُلُّ النَّازِلَاتِ تَوَافِيهِ
وَكُلُّ الَّذِي أَسْعَى إِلَيْهِ هَزِيلٌ

وَكُنْتُ جَزُوعاً فِي الْأَذَى فَتَرَكْتَنِي
وَعِنْدِي لِكُلِّ الْفَاجِعَاتِ قَبُولٌ

أَلَا لَيْتَ أَنِّي مَا عَرَفْتُكَ سَاعَةً

إِذْ كَانَ حُزْنِي عَبْرَةً وَيَزُولُ

ديوان المراثي - م ٥

وَلَكِنْ يَشَاءُ اللَّهُ لِي أَنْ تُجِيرَنِي

وَأَنْ تَحْتَفِيَ بِي وَالخَطُوبُ تَصُولُ

وَمَا كِدْتُ أَدْنُو مِنْكَ حَتَّى رَزَأْتَنِي

فِيَا لَيْتَ أُمِّي بِي عَلَيْكَ تَكُولُ!

وَمَا كُنْتَ فَرْدًا إِذْ فَقَدْتُكَ إِنَّمَا

أَخٌ وَأَبٌ فِي وَاحِدٍ وَخَلِيلٌ

يَقُولُونَ إِنَّ الصَّبْرَ فِي كُلِّ حَالَةٍ

جَمِيلٌ، وَهَلْ صَبْرٌ عَلَيْكَ جَمِيلٌ؟

سَلَامٌ أَبَا فَخْرِي عَلَيْكَ أُطِيلُهُ

بَلَى، وَسَلَامٌ الْأَصْدِقَاءِ طَوِيلٌ

وَكَانَ عِنَاقًا كُلَّ يَوْمٍ لِقَاؤُنَا
فَهَلْ لِنَمِ يَسْعَى إِلَيْكَ سَبِيلٌ؟
وَهَلْ لِيَدٍ بَارَكْتَهَا إِذْ لَمَسْتَهَا
رَوَاءَ سَلَامٍ مِثْلِ ذَاكَ خَضِيلٌ
أَسَلَّمَ رَغَمَ الْهَمِّ، وَجَهِيَ ضَا حَكَ
لَأَنَّ سَنَى مِنْ نَاطِرَيْكَ كَفَيْلٌ
أَنَا الْيَوْمَ أَسْتَغْفِيكَ أَنِّي مُسَلَّمٌ
عَلَيْكَ وَمِدْرَارُ الدَّمُوعِ يَسِيلُ
أَنَا الْيَوْمَ أَسْتَغْفِيكَ أَنِّي مُنْشِدٌ
وَكُنْتُ عَيْبًا حَيْثُ أَنْتَ قَوْلٌ
رَجَوْتَ سَمَاعِي فَاعْتَذَرْتُ مُغْمَغِمًا
فَكُلُّ حَدِيثٍ مِنْ سِوَاكَ دَخِيلٌ

لقد كنتُ أَسْتَحْيِيكَ حَيًّا، وَهَا أَنَا
وَحَقِّكَ، رَغَمَ الْمَوْتِ، مِنْكَ خَجُولُ

فَصَمْتُكَ هَذَا الْيَوْمَ أَبْلَغُ نَاطِقِ
وَقَوْلِي وَقَوْلُ الْآخِرِينَ فَضُولُ

تَكَلُّتُكَ مِنْ نَاعٍ يَصُكُّ مَسَامِعِي
لَهُ مَدْيَةٌ بَيْنَ الضُّلُوعِ تَجُولُ

تَكَلُّتُكَ تَتَعَى كُلَّ خَيْرٍ وَطَيِّبَةٍ
أَمَا كَانَ فِي هَذَا الْأَلُوفِ بَدِيلُ؟

أَمَا كَانَ فِي هَذَا الْخُشَارَةِ مَقْصَدُ
لِسْهَمٍ أَصَابَ الْمَجْدَ فَهُوَ قَتِيلُ

تَتَادَيْتَ بِاسْمِ يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ

وَصَوَّلْ لِكُلِّ الْمَكْرُمَاتِ فَعَوَّلْ

فَسَأَلْتُ بِكَ الْأَمَاقُ دَمْعاً مُخَضَّباً

وَمَاءً لَكَ الْأَعْنَاقُ حَيْثُ تَمِيلُ

سَلَامٌ أَبَا فَخْرِي عَلَيْكَ، وَإِنِّي

لَأُكْبِرُ أَنَّ الرَّأْسِيَّاتِ تَزُولُ

وَأَنَّ بَحَاراً بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ

تَجِفُّ، وَتَغْدُو بَلْقَعاً، وَتَحْوُلُ

بَلَى، وَمَعَاذَ اللَّهِ، مَا كُنْتُ نَاكِراً

وَلَكِنَّ وَطْءَ الْمَوْتِ فِيكَ ثَقِيلٌ

سَلَامٌ أَبَا فَخْرِي عَلَيْكَ، وَدُونَهُ

عَلَى رَغْمِنَا، تُرَبُّ عَلَيْكَ مَهِيلٌ

يَمِيناً بِمَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنَّنِي
لِقَلْبِي مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ مَسِيلٌ
أَمْرٌ عَلَى الدِّيَّانِ حَيْثُ يُلْمُنَا
وَلِي نَاطِرٌ عَنِ مُتَّكَأكَ كَلِيلٌ
وَأَجْلَسُ مَذْهُولاً غَرِيباً، وَلَمْ يَكُنْ
يَرِينُ عَلَى وَجْهِ لَدَيْكَ ذَهُولٌ
وَكَيفَ ذُهُولِي عَنْكَ إِذْ كُلُّ لَفْتَةٍ
تَلَفَّتْهَا لِلصَّالِحَاتِ دَلِيلٌ
وَإِذْ أَنْتَ لِلشَّاتِينَ دِفءٌ وَرَحْمَةٌ
وَاللِقَائِظِينَ الْمُتَعَبِينَ مَقِيلٌ
وَبَيْتُكَ لِلْمُسْتَضْعَفِينَ حِمَايَةٌ
وَهَدْيٌ لِكُلِّ الْعَاطِرِينَ مَقِيلٌ

فيا باذخَ الأمجادِ فيكَ ازورارةُ
ويا يانعَ الأعوادِ فيكَ ذبولُ
ويا كاتباً «أهلاً وسهلاً بمن أتى»
أتاكمُ أتاكمُ وافدٌ ونزيلُ

فما لي أرى ديوانَ بيتكِ خاوياً
وقد ملأتهُ رنةٌ وعويلُ؟
ومالكِ يا طلقَ الشَّمائلِ حلوها
سَكَتٌ ومنكُ القولُ حينَ تقولُ؟
ألا مرحباً تُزجى؟ ألا بعضُ مرحبٍ
بصوتكِ يا مَنْ يحتفي وينيلاً؟
لقد كنتَ أوفى الناسِ حينَ كتبتهَا

لِتَبْقَى إِذَا مَا حَانَ مِنْكَ رَحِيلُ

سَلَامٌ أَبَا فُخْرِي عَلَيكَ فَدَهْرُنَا

بِمَثَلِكَ يَا خَيْرَ الرَّجَالِ بَخِيلُ

تَشَاءُ لِي الْأَقْدَارُ لَا دَرَّ دَرُّهَا

وَفَاءٌ لِدَيْنٍ مَا إِلَيْهِ وَصُولُ

بَكَى جَدُّكُمْ جَدِّي، وَهَذَا أَنَا جَازِعُ

عَلَيْكَ، وَخَلْفِي لِلْمَنْيَةِ غُولُ (*)

يَمِيناً إِلَى تُقْيَاكَ أَبْقَى مُسَلِّماً

عَلَيْكَ.. صَبَاحٌ يَنْطَوِي وَأَصِيلُ..

(*) إشارة إلى رائعة الشريف الرضي في رثاء أبي إسحق الصابي.

* * *

- YY -

النَّخْلُ لَا تَنْحِنِي إِلَّا ذَوَائِبُهُ

في حادثٍ فاجع، في نيسان ١٩٨٧
فقد الرئيس البكر ولده. هذه
القصيدة كُتبت في احتفالات نيسان
من العام نفسه.

جَلَّ ابْتِسَامُكَ عَنْ حُزْنِ يَواكِبِهِ
أَقْبِلْ، وَإِنْ كَانَ دَمْعُ أَنْتِ سَاكِبِهِ
لَا بِأَسَ نَيْسَانَ.. بَعْضُ الدَّمْعِ مَكْرَمَةٌ
وَشَيْخُكَ الْآنَ فِي صَمْتٍ يُغَالِبُهُ
لَا بِأَسَ نَيْسَانَ.. أَدْرِي أَنَّهُ شَطَطٌ
مِنَ الزَّمَانِ، وَشَيْخِي لَا يُعَاتِبُهُ
رَجَوْلَةً، غَيْرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ كَلَفَتْ
وَأَنَّ فَجْرَكَ، رُغْمًا، مَالَ جَانِبِهِ

يا سَيِّدِي كُنْ عَذِيرِي أَنْ فِيَّ أَباً
وَقَلْبُ كُلِّ أَبٍ قَلْبِي يُرَاقِبُهُ
فَكَيْفَ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْقَلْبَ.. مَعْدِرَةً
إِنَّا عَلَى الْحُزْنِ نَنْسِي مَنْ نُخَاطِبُهُ!
أَقُولُ صَبْرًا؟.. لِمَاذَا؟.. مَنْ يُخَوِّلُنِي
هَذَا؟.. وَأَكْرَمُ صَبْرٍ أَنْتَ صَاحِبُهُ
لَا تَحْزَنَنَّ؟.. تَجْرؤُ الْأَلْفَاظُ؟.. أَيُّ فَمٍ
يَقُولُهَا؟.. ثُمَّ مَنْ ذَا لَا يُحَاسِبُهُ؟
يَلُوحُ لِي سَيِّدِي أَنَّ الزَّمَانَ عَلَى
قَدْرِ الْمَرْوَةِ تَأْتِينَا عَوَاقِبُهُ
إِنَّ الْكَبِيرَ كَبِيرَاتٍ مَدْوِيَّةً
أَمْجَادَهُ، وَكَبِيرَاتٍ مَصَائِبُهُ!

يا أيُّها الرَّجُلُ الـ تَبَقَى أبوتَهُ
كَخَيْمَةِ اللَّيْلِ تَأْوِيها كواكبُهُ
يَسِيلُ جُرْحُ ضِياءٍ فِي حُشاشَتِهِ
لو جانبٌ مِنْ سَناها خَرَّ تاقِبُهُ
لكنَّ يَظَلُّ مَهيبَ الصَّمْتِ مُشْتَمِلاً
بِكِبَرِهِ، مُسْتَقِيماتٍ مَنابِغُهُ!
رجولَةٌ أَنْ وَجَّهَ الجُرْحَ مِنْكُم
وإنَّ تَفَجَّرَ فِي الأعماقِ شاخِبُهُ
رجولَةٌ أَنَّهُ ما شالَ مِنْ عَجَبٍ
يوماً، ولا انْحَطَّ عِنْدَ الهَمِّ حاجِبُهُ!
يَبْقَى المُحيطُ مَهيباً، هادِئاً.. ولَقَدْ
تَغْلِي بِما لا تَرى عَيْنٌ غِيابُهُ!

يا سَيِّدِي إِنَّ بَعْضَ الشُّعْرِ مُنْفَجِرٌ
مِنِ الضَّمِيرِ، تَلْبِيهِ رَؤُسِهِ
تَجِيشٌ بِالْهَمِّ، كُلُّ الْهَمِّ، فَوْرَتُهُ
وَتَجْمَعُ الْحُزْنَ طُوفَاناً مَسَارِبُهُ
مِنْ لَثَغَةٍ.. مَهْدِ طِفْلِ فَارِغٍ.. لُغَةٍ
نَعْتَادُهَا. أَمَلٌ كُنَّا نُدَاعِبُهُ
ثُمَّ أَنْتَهَى تَارِكاً ظِلًّا يُطَالِعُنَا
وَمَوْضِعاً صَوَّحَتْ فِيهِ مَلَاعِبُهُ!
يا سَيِّدِي، حُزْنُ كُلِّ الْأَرْضِ تُبْصِرُهُ
فِي مَرْفَأٍ رَحَلَتْ عَنْهُ مَرَاقِبُهُ!
يا وَالِدَ الشُّبْلِ مَجْدُولاً تَسِيرُ بِهِ

وَهَنَّا عَلَى دَمِهِ الزَّكِيِّ قَوَارِبُهُ
بِمَنْ أُعْزِيكَ؟.. فِي لَبْنَانَ إِخْوَتُهُ
دُمَّ تَجِيْشُ بِلَا ذَنْبٍ غَوَارِبُهُ
بِمَنْ أُعْزِيكَ؟.. هُمْ أَوْلَادُكَ الِّ قُتِلُوا
بِالْأَمْسِ فِي مَجْمَرٍ ضَاقَتْ مَذَاهِبُهُ
فَفَرَّجُوْهَا بِأَزْكَى مَا بِهِمْ، دَمِهِمْ
صَانَتْ كَرِيْمَةً مَّرْوَانَ كِتَابِيَهُ!
بِمَنْ أُعْزِيكَ؟.. هُمْ أَهْلُوكَ مَنْ
عَلَى فِلَسْطِيْنَ.. مَسْلُوبٌ وَسَالِبُهُ
تَعَاوَرُوا دَمَهُ.. يَغْلِي فَتَسْفَحُهُ
حِيْنَا عِدَاؤُهُ، وَأَحْيَانَا أَقَارِبُهُ!
يَا سَيِّدِي.. أَنْ تُوَاسِي أُمَّةً رَجُلًا

بِنَجْلِهِ، فَتَوَاسَى بِهَا مَنَاقِبُهُ
مَجْدٌ، وَإِنْ كَانَ يُدْمِي قَلْبَ صَاحِبِهِ
ذِيكَ جَرْحَ ضَمِيرِ الشَّعْبِ عَاصِبِهِ
مَا التَّكْلُ تَكْلَكَ.. مَوْتُ الْحَرِّ مَأْتِرَةٌ
جَرْحُ كَرِيمٍ مُضِيئَاتٍ مَسَاكِبِهِ
التَّكْلُ تَكْلُ الَّذِي مَاتَتْ مَرُوئُهُ
فَمَا تَنْزُسُوى قَیْحٍ مَضَارِبُهُ!
التَّكْلُ تَكْلُ الَّذِي لَمْ يَبْقَ مِنْهُ سَوى
شَتِيمَةٍ أَبَدَ الدُّنْيَا تُصَاحِبُهُ
إِنَّ الَّذِي هَزَّتْ الدُّنْيَا خِيَانَتَهُ
غَيْرُ الَّذِي هَزَّتْ الدُّنْيَا نَوَائِبُهُ!
يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْعِمْلَاقُ، مَا كَدَرْتَ

إِلَّا بِمَوْتِ الَّذِي يَهْوَى مَشَارِبَهُ
تَأَلَّقَتْ صُغْدًا أَيَّامُهُ، وَسَمَتْ
أَعْلَامُهُ، وَزَكَتْ فِرْعَاءُ نَجَائِبُهُ
وَوَطَالَ حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَ هَامَتُهُ
وَوَصَالَ حَتَّى كَأَنَّ الْمَوْتَ صَاحِبَهُ
وَوَصَادَمَتْ رُجْمَ الدُّنْيَا كَتَائِبَهُ
وَوَزَاحَمَتْ قِمَمَ الدُّنْيَا مَوَاكِبَهُ
هَذَا التُّرَابُ الَّذِي تَبْقَى سِقَايَتُهُ
دَيْنًا، وَكُلُّ أَخِي دَيْنٍ نُطَالِبُهُ
شَارَكَتْ أَهْلَكَ فِيهِ إِذْ جَرَيْتَ لَهُ
دَمًا أَعَزُّ عِبَادِ اللَّهِ سَاكِبُهُ!

يَا سَيِّدِي كُلُّ مَوْلُودٍ لَهُ أَجَلٌ

وَكُلُّ مَوْتٍ طَوِيلَاتٌ مَخَالِبُهُ

لَكِنْ يُقَصِّرُ مِنْهَا أَنْ تَحُطَّ عَلَى

جَلْدٍ، وَإِنْ هَيْضَ، تَلْرِيمٍ

ديوان المراثي - م ٦

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْعِمْلَاقُ جَذْرُكَ مِنْ

هَذَا التُّرَابِ، وَمَا تَفْنَى عَجَائِبُهُ

تَهْبُ كُلُّ رِيَّاحِ الْأَرْضِ عَاصِفَةً

وَالنَّخْلُ لَا تَتَحَنَّى إِلَّا ذَوَائِبُهُ!

وَتَسْتَعِيثُ جِرَاحِ الْأَرْضِ أَجْمَعُهَا

وَجَرْحُنَا أَبَدًا خُرْسٌ نَوَادِبُهُ!

يَظَلُّ يَزْخَرُ مِنْ كِبَرٍ وَمَوْجِدَةٍ

حَتَّى تَفْجَّرَ بُرْكَانًا لَوَاهِبُهُ!

عَنْفَ الْفُرَاتِ، إِذَا هَيْضَتِ مَنَابِعُهُ

فَاضَتْ فَأَغْرَقَتْ الدُّنْيَا غَوَارِبُهُ!

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْعِمْلَاقُ مَعذِرَةً
لَا يُتَّبَرُّ الدَّهْرَ إِلَّا مَنْ يُوَاتِبُهُ
إِنِّي رَأَيْتُ إِلَى الْأَقْزَامِ تُحْطِئُهُمْ
لِفَرْطِ مَا صَغُرُوا جُرْمًا، نَوَائِبُهُ
أَوْلَاءُ لَا فَقَدَهُمْ أَبْكِي، وَلَا دَمَهُمْ
زَكِّي، وَلَا مَيِّتَهُمْ قَامَتْ خَرَائِبُهُ
لَكِنَّهُمْ هَمَلُ التَّارِيخِ، تَلْفُظُهُمْ
أَدْنَى ذُرَاهُ، وَتُؤْوِيهِمْ خَرَائِبُهُ
فِيَا كَبِيرًا عَلَى الْأَحْدَاثِ، مُنْصَلِتًا
لِلنَّازِلَاتِ، مَعَدَّاتِ رِكَائِبِهِ

مَحَشَّدَاتٍ بِإِلَاحِ تَجَارِبِهِ
مَوْجَلَاتٍ إِلَى حِينِ غَوَاضِبِهِ
لَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَدْرًا أَنْتَ رَافِعُهُ
وَلَا أَطْحَاحَ سَنَامًا أَنْتَ غَارِبُهُ
وَلَا تَنْزَلَ أُمَّةً يَهْدِي مَسِيرَتَهَا
سَنَاكَ يَا مِشْعَلًا نَبْقَى نُرَاقِبُهُ..!

* * *

بين يَدَي عبد الرحيم عمر..

كتبت هذه القصيدة في الطريق
إلى عمان - وافتتح بها مهرجان
الرّمثا الشعري بُعيد وفاة شاعر
الأردن الكبير عبد الرحيم عمر.

قَرَّبَ رِحَالِكَ مِنْ رِحَالِي
فَمَا لَنَا نَفْسُ الْمَالِ
نَفْسُ الْمَفَازَةِ وَالخُطَى
لَكِنْ سَبَقْتَ أَبَا جَمَالِ!
أَدْرِيكَ عُمْرَكَ غَالِبِي
لَكِنْ رِهَانُ الْمَوْتِ غَالِي!
حَتَّى وَأَنْتَ تَمُوتُ، تَأْبَى
أَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ تَالِي!

فَسَبَقْتَنَا.. لِمَ تَلْتَقِتْ

حَتَّى لِبَيْتِكَ وَهُوَ خَالِي!

قَرَّبَ رِحَالِكَ مِنْ رِحَالِي

وَاشْبِكَ حِبَالِكَ فِي حِبَالِي

فَأَنَا وَحِيدٌ، وَهَنُ الْ—

خُطُواتٍ.. مُرْتَجِفُ الظُّلالِ

مَتَّعِرٌ حَدَّ الضِّياعِ

مُؤَجَّلٌ حَدَّ الْمَلالِ

لَا وَتَّرتِ قَوْسِي كعَهْدِكَ

بِي.. وَلَا رِيشتَ نِبَالِي

لَكِنْ أَعِيشُ وَلَا تَسَلْ

ماذا أعيشُ على اكتِهالي

وأسيرُ.. ها أنذا أسيرُ

مع القطيعِ بلا سؤالِ

وعلامَ أسألُ..؟.. مَنْ سَأَلُ؟؟

مَنْ بأسسئلتِي يُبالي؟

وطريقُنَا هذي المتاهةُ

والدليلُ أبو رُغالِ!

قربُ رحالكَ من رحالي

واغفرْ شكاتيَ وانفعالي

خمسونَ عاماً والأكفُ

على الزنادِ أبا جمالِ

خمسونَ عاماً.. أنتَ تَذكرُ
كَمِ مِنَ الغُررِ الغوالي
أنتَ شَدتَهُنَّ ورددتَ
أصداءها معَكَ الليلي
خمسونَ عاماً والمآذنُ
تَسْتَفيقُ على بلال!
خمسونَ عاماً والصلوةُ
تُقامُ موحِشةَ الجلال!
ودماؤنا تجري، ونحنُ
نُمِدُّهُنَّ بلا كلال!
خمسونَ عاماً جُنِّدتَ
حتَّى الحجارةُ في القتال!

حَتَّى الصِّغَارُ نَمَوْا وَشَابُوا
بَيْنَ هَاتِيكَ الصَّوَالِي
وَأَلآنَ.. هَا أَنْذَا أَمَامَ
حَضْرِكَ الْجَمِّ الْكَمَالِ
أَتَرَى إِلَى النُّقْصَانِ فِي؟!
وَهَلْ تُحِسُّ مَدَى انْخِذَالِي؟!
لَوْ كُنْتَ تُبْصِرُنِي لِتَعْرِفَ
أَيُّ مَذْبَحَةٍ بِيَالِي
وَأَنَا أَرَى وَطَنِي يُبَاعُ
وَكُلُّ زَرْعِي لِلزَّوَالِ
وَدُمَاءِ أَوْلَادِي أَمَامِي
تَسْتَحِيلُ إِلَى احْتِفَالِ

تَصَافِحُ الْأَيْدِي عَلَيْهَا
وَهِيَ تُشْرَبُ لِلتُّمَالِ!
وَمَحَارِمِي.. وَأَنَا أَقُولُ
لَهَا: أَمُوتُ وَلَنْ تُتَالِي
وَإِذَا بَهَا مِنْ مَوْلَدِي
قَدْ هَيَّئْتُ لِلِاحْتِلَالِ!
فَإِذَا اشْتَعَلْتُ فَأَيُّهُمْ
لَا يُسْتَفْزَمُ مِنْ اشْتِعَالِي؟
وَإِذَا رَمَيْتُ فَمَنْ يَدِي؟
وَإِذَا انْتَحَيْتُ فَمَنْ رَجَالِي؟
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

خَذَلَ الْأَوَائِلَ بِالتَّوَالِي!

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

دَفَعَ الْيَقِينَ إِلَى الضَّلَالِ!

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

تَرَكَ الرَّؤُوسَ بِلا عِقَالِ!

هَذِي نَهَايَاتُ الْمُطَافِ

وَتَلِكِ خَاتِمَةُ النُّضَالِ!

قَرَّبَ رِحَالِكَ مِنْ رِحَالِي

وَارْفُقَ وَأَنْتَ تَرَى هُزَالِي

أَنَا فِي زَمَانٍ لَا يُعِينُ

وَلَا يُعَانُ بِأَيِّ حَالِ!

أذنبُبه عَدَدَ الحَصَى
وذنبُبه عَدَدَ الرَّمَالِ
وَرَحَاهُ مَا تَتَفَكُّ تَطْحَنُ
أَهْلَهُ حَتَّى التُّفَالِ
فَإِذَا التَّقَتُّ إِلَى الِیَمِینِ
أَوْ التَّقَتُّ إِلَى الشَّمَالِ
أَكْوَامُ مَطْحُونِینَ مَدَّ العَینِ
مَائِلَةً حِیَالِی
وَرُكَّامُ مَطْعُونِینَ، لَا
فِی الجِسمِ، لکنْ فِی الخِصَالِ
سَقَطَ الزَّمَانُ فَأَهْلُهُ
يَتَّسَابِقُونَ لِلابْتِذَالِ!

يَتَّبِعُونَ بِأَنَّهُمْ

نَصَرُوا الْحَرَامَ عَلَى الْحَلَالِ

وَبِأَنَّهُمْ يَتَهَفَّتُونَ

عَلَى الصَّغَائِرِ وَالسُّفَالِ

وَبِأَنَّ أَقْصَى مَا يَوْمِلُّ

خَيْرُهُمْ عَيْشُ الْمَوَالِي!

هَذَا زَمَانٌ مَا حَلَمْنَا

أَنْ يَجِيءَ أَبَا جَمَالٍ

مَنْ مَاتَ مَاتَ، وَمَنْ يَعِشْ

فَلانْتَحَارِ أَوْ الْخَبَالِ

أَوْ يَسْتَحِيلُ، وَعَنْ رِضَاهُ

نِخَالَةٌ بَيْنَ النَّخَالِ!

أرأيتَ مَنْ مَنَّا يُغَالِي؟
مَنْ يَسْتَفْزُؤُ . . وَمَنْ يُمَالِي؟
مَنْ يَنْحِنِي . . مَنْ يَسْتَطِيلُ
وَمَنْ يُطَاطِيءُ وَهُوَ عَالِي؟
وَمَنْ الَّذِي يَحْتَجُّ حِينَ
تُبَاعُ أَعْرَاضُ الرِّجَالِ؟
أَنْتَ احْتَجَجْتَ بِكُلِّ مَوْتِكَ
وَاحْتَجَجْتَ بِالْإِعْتِزَالِ!
وَتَرَكْتَنَا . . لِمَ تَلْتَفِتُ
وَأَقَمْتُ مُنْكَفِيءَ الدَّلَالِ!
أَبْكَى عَلَيَّ وَطَنِي، وَتَذْبَحُنِي

مَخَافَةٌ أَنْ يُـوَالِي

وَأَذُودٌ عَنْهُ بِأَضْلَعِي

وَأَذُودُهُ هُوَ عَنْ عِيَالِي!

فَانظُرْ إِلَيَّ وَقَدْ غَدَوْتُ

أَخَافُ مِنْ أَهْلِي، وَآلِي

وَأَقَمْتُ فِي جُرْحَيْنِ.. جُرْحِ

يَدِي.. وَجُرْحِ أَبِي وَخَالِي

وَكَلَاهُمَا.. يَفْنَى الزَّمَانَ

وَلَا يَفِيءُ لِلْأَنْدِمَالِ!

لَكِنِّي عَبْدُ الرَّحِيمِ

وَحَقُّ بَيْتِكَ وَهُوَ غَالِي

مَا نَمَّتْ يَوْمًا وَالْعِرَاقُ

مَعْرُضٌ لِلْإِغْتِيَالِ!

كَلًّا، وَلَا أَرْخَيْتُ قَوْسِي

وَهُوَ مُسْتَجِرُ النَّصَالِ

لِي فِيهِ أَنْ دَمِي يَسِيلُ

وَأَنْ أَوْرِدْتِي تُلَالِي

وَبَأَنَّه عُمُقَ الضَّمِيرِ

وَحُبُّهُ عُمُو الْحِيَالِ؛
ديوان المراثي - م ٧

عَبْدَ الرَّحِيمِ.. وَقَدْ نَذَرْتُ

دَمِي، وَجَاوَزْتُ احْتِمَالِي

وَدَخَلْتُ بَيْتَكَ مِثْلَمَا

أَدَمَنْتُ فِي الْحَجَجِ الْخَوَالِي

فرأيتني.. والأهلُ أهلي
والرئالُ بهِ رئالي
لكنني مثلُ الغريبِ
تكادُ تُكرُنِي ظِلالي
وأقولُ: ما لي..؟.. صادقُ
أنا يا تُرى إن قلتُ: ما لي؟!
ما لي منامُك في التُّرابِ
وكنتَ عملاقاً قبالي!
وجنوحُ صوتِكَ للنُّعاسِ
وكان يفتَرعُ الليالي
ومآلُ تلكَ الأريحيَّةِ
والفتوَّةُ للزَّوالِ

وبأنتني أمسيتُ أدمى الـ
ثاكلينَ أبـا جمالِ
سساءلتُ نفسي إذ ذرى
عمّان تلمعُ في الجبالِ
والليلُ مُرخىٌّ في الأزقةِ
والمنازلِ.. والبدوّالي
وأنا أدورُ سُدىً بعيني
في الوهادِ، وفي التلالِ
لأرى لبيتِكَ، إن تـكُ
الأقمارُ ما زالتُ تُلالي
أَسْمَعُ الضحكاتِ.. والأسمارَ
أنظُرُ للهلالِ

فأراه يبكي فوق بيتك
وهو يلمع في العَلالي!

ودخلت في عمّان.. منكسر
الخطى.. وجِل الذُّبالِ

أزورُ قبـركَ.. أم أزوركُ
في الصِّباحِ أبا جمالٍ!

* * *

وداعاً أبا سدير

فِي رِثَاءِ جِبرَا إِبْرَاهِيمَ جِبرَا

١٩٩٥

فِي وَدَاعِكَ جَبْرًا
سَأَسْتَحْضِرُ الْآنَ بَغْدَادَ مِنْ عُمُقِ خَمْسِينَ عَامًا
لَتُلْقِيَنَّ عَلَيْكَ السَّلَامَ
شَنَاشِيلَهَا، وَأَزَقَّتْهَا،
وَقَوَانِيسُهَا فِي الظَّلَامِ
وَقَوَارِبُهَا السَّابِحَاتُ لِأُمِّ الْعِظَامِ (*)
بَدْرَابِكْهَا، وَالْهَالِهِلْ،

(*) أمّ العظام: جزيرة في نهر دجلة.. في قلب بغداد.

والشَّمعُ يُسْرَجُ فِي كَرَبِ النَّخْلِ..

أَسْتَحْضِرُ الْآنَ بَغْدَادَ

مِنْ نَوْمِ خَمْسِينَ عَامًا

لِتُبْصِرَ أَنَّ الْفَتَى الْجَاءَهَا مِنْ بِلَادِ الْغَمَامِ

وَفِي.. فَقَضَى عُمُرَهُ بَيْنَ أَحْضَانِهَا

وَأَغْوَاهُ يَوْمًا دُجَاهَا فَنَامَ..

سَأَوْقِظُ بَغْدَادَ جَبْرًا

سَأَوْقِظُ مَقْهَى حَسَنَ عَجْمِي الْآنَ (*)

وَمَقْهَى الرَّشِيدِ

وَالْبِرْلَمَانَ

(*) حسن عجمي، والرشيدي، والبرلمان: أسماء مقاهٍ مشهورةٍ في

شارع الرشيد ببغداد وكانت تضحُّ بالأدباء آنذاك.

وَأَلْتَمِسُ الْآنَ «بَدْرًا»^(*)

أَقُولُ لَهُ إِنَّ جَبْرًا

وَحِيدٌ بِحُفْرَتِهِ

وَهُوَ لَمْ يَأْلَفِ الْمَوْتَ بَعْدُ

فَسَاعِدْهُ

إِنَّ وَلِيدَ بَنِ مَسْعُودٍ^(**)

يَقْبَلُ كُلَّ الْفَوَاجِعِ

إِلَّا فَجِيعَةً أَنْ يَتْرُكُوهُ وَحِيدًا

فَسَاعِدْهُ

(*) بدر: بدر السياب.

(***) وليد مسعود: بطل رواية جيرا المشهورة.

سوف يَجِيئُكَ «بدر» كعادته
وأوراقه البيضُ تحتَ وِسادتهِ

قد يمرُّ على عَجَلٍ بابنِ مردانٍ^(*)

يُخبره أنَّ جبراً أتى

وتعلم أنَّ «حسيناً» سيفزعُ كالطُّفلِ

يُفزعُ أهلَ القبورِ جميعاً

ويجهلُ للآنَ

زهرةُ مردانٍ

أنَّ القبورَ

وأنَّ القصورَ

(*) حسين مردان: شاعر عراقي كبير توفي في أواسط السبعينيات.

عالمٌ غيرُ عالمنا

يجهلُ زهرةَ مردانٍ

أنَّ «قصائدُ العاريات» اكتسبنَ قلوبَ العذارى (*)

وقلوبَ السُّكَّارى

وقلوبَ المُحبِّينَ

يجهلُ أنَّكَ جئتَ لهُ بندى العاشقينَ

وليدَ بنَ مسعود..

وأودعتَ كالنَّاسِ قبرا

وموتك لا يُشبهُ الموتَ جبرا

(*) قصائد عارية: ديوان مشهور لحسين مردان.

رَأَيْتُ إِلَيْكَ خِلَالَ الشُّهُورِ الْأَخِيرَةِ
تُورِقُ.. تُورِقُ

حَتَّى انْحَنَّتْ تَحْتَ أَحْمَالِهِنَّ جَمِيعُ غُصُونِكَ

هَلْ كُنْتَ تَرْكُضُ لِلْمَوْتِ جَبْرًا بِكُلِّ حَيَاتِكَ؟

أَمْ كُنْتَ تَحْجُبُهُ عَنْكَ

مُخْتَبِئًا خَلْفَ نَبْضِكَ

وَمُخْتَبِئًا خَلْفَ رَفْضِكَ

حَدَّ الْفَزَعِ

حَسَنًا..

سَأُنَادِي بِلُنْدٍ وَأَكْرَمَ

أدعو رشيدَ بنَ ياسين
أدعو البُريكان (*)
أسأَلُهُم أنْ يَعُودُوا بِذَلِكَ الزَّمانَ

مِنَ بطونِ المقاهي العتيقه
والتَّخوتِ الغَريقه
بالحكايات..

أيام كان أعزَّ سَعادتنا
أنْ نؤلِّبَ موجاً على جُرفه
ونُشيرَ أديباً على حَرفه

(*) بلند الحيدري، أكرم الوتري، رشيد ياسين، ومحمود البريكان:
أصدقاء جبرا وعصبتة.. وهم مع بدر ونازك طليعة التجديد في
الشعر العربي المعاصر.

كنت أنت،

ولم نكُ نشعرُ

محورَ كلِّ مُشاكسةٍ

كنت ترطمُ غيماً بغيماً

وتتظرُ مبهتِهاً كيفَ يشتعلُ البرقُ

ثمَّ يهلُّ المطرُ..

الكتابةُ ليستَ بطرَّ

هكذا كنتَ تُوحى لنا

دونَ أن تتعالَمَ جبرا

وكنّا نهيمُ بهذا الفتى الجاءنا من بلادِ الغمامِ

وفي قلبه هاجسٌ لا ينامُ

أَنَّ لِلْحَرْفِ جَمْرَتَهُ

أَنَّ لِلشَّعْرِ خَمْرَتَهُ

أَنَّ مَنْ يَكْتُبُ الشُّعْرَ بَيْنَ النُّبُوَّةِ وَالْمَوْتِ

قَدْ يَفْقَدُ الصَّوْتِ

لَكِنَّهُ قَطُّ لَا يَتَنَازَلُ عَنِ صَوْلَجَانِ نُبُوَّتِهِ..

وَهَا أَنْتَ ذَا

بَعْدَ سَبْعِينَ عَاماً وَنَيْفَ

وَسَبْعِينَ بَرْدًا وَصَيْفًا

تَتَنَازَلُ عَنِ عَرْشِ صَوْتِكَ جَبْرًا

وَتَسْكُنُ كَالنَّاسِ قَبْرًا

وَسَلَامٌ عَلَيْكَ

أَنْتَ عُمْرَكَ لَمْ تَتَنَازَلْ وَلَيْدَ بْنَ مَسْعُودٍ

عَنْ نَجْمَةٍ فِي يَدَيْكَ

وَلِهَذَا خَشِيتُ عَلَيْكَ مِنَ الْمَوْتِ جَبْرًا

فَكَمْ كُنْتَ تَتَقَلَّقُ مِنْ أَنْ يَجِيءَ

وَمَا بَرَحْتَ بَعْدُ لَوْلَاؤُهُ فِي مَحَارِبِهَا

وَهِيَ تَرِنُو إِلَيْكَ..

* * *

أَلْقُ الصَّمَتِ

فِي ذِكْرِ رَحِيلِ الشَّاعِرِ نَزَارِ قَبَانِي

أَلَقُ الصَّمْتِ، وَصَمْتُ الْأَلْقِ
يَسْبَحَانِ الْآنَ فَوْقَ الْوَرَقِ
مَلَأَ أوردَتِي أَشْرِعَةً
مُعْنِياً بِحَارِهَا فِي الْغَرَقِ
وَأَنَا أَرْقُبُ أَطْيَافَهُمَا
وَالسَّنَا، كُلُّ السَّنَا، فِي حَدَقِي!

أَلَقَ الصَّمْتِ.. تُرَى أَيْنَ مَضَى
ذَلِكَ الصَّوْتُ كَأَنَّ لَمْ يَنْطِقِ؟
كَيْفَ هَاتِيكَ الرَّؤْيُ أَجْمَعُهَا

جَنَحَتْ مِثْلَ جَنَاحِ الشَّفَقِ؟
لَمْ يَعُدَّ غَيْرَ حُرُوفٍ أَنْجُمٍ
وَحَفِيفٍ جَرِيَانِ الْغَدَقِ
يَمْلَأَنِ الرُّوحَ حُبًّا وَسَانِيً
وَجَمَالًا عَارِيًّا لَا يَتَّقِي
كُلُّ مَنْ يَعِشُقُ لَا يُنْكِرُهُ
وَحَدَهُ يُنْكِرُ.. مَنْ لَمْ يَعِشُقِ!

أَيُّهَا الْخَالِقُ.. يَا أَبْلَغَ مَنْ
صَوَّرَ الْحُبَّ فَلَمْ يَخْتَلِقِ
لَمْ يُوَارِبْ.. لَمْ يَنْلِ أَجْنَحَةً
حَمَلَتْ رُؤْيَاهُ ضَيْقَ الْأُفُقِ
عُمُرَهُ لِلْحُبِّ فِي نَامُوسِهِ

حُرْمَةً، بَلْ ذِمَّةٌ فِي الْعُنُقِ
أَنْ يُنَاجِيَهُ نَبِيلاً فَارِساً
لَا كَمَا يَفْعَلُ وَاهِي الْخُلُقِ
وَلِذَا كَانَ أَمِيراً فِي الْهَوَى
وَأَسِيراً فِيهِ سَقَى وَسُقِيَ!
يَا نِزَارَ الْحُبِّ.. هَلْ مِنْ لُغَةٍ
تَحْتَقِي بِي، وَلِلسَانِ ذَلِيقِ
يُسْقِطُ الْمَيْتَ مِنْ أَحْرَفِهَا
وَيَبْقَى رِيَشَهَا فِي طَبَقِي
عَلَّنِي أَقْلِتُ مِنْ أَجْنَحَتِي
لِدُنِّي كُنَّا عَلَيْهَا نَلْتَقِي
يَوْمَ كُنَّا نَمَلُ الْمَرِيدَ فِي

لِيلِ بَعْدَادِ بِذَلِكَ الْعَبَقِ
وَيَلْمُ الْفَجْرُ مِنْ أَقْدَامِنَا
مَا تَوَارَى فِي زَوَايَا الطُّرُقِ!

يَا صَدِيقِي.. يَا نَسِيبِي.. يَا أَخِي
يَا عِرَاقِيَّ الْهَوَى وَالرَّهَقِ
هَلْ بَقَايَا «مَرَحَبًا» تَسْمَعُهَا
مِنْكَ آذَانَ الْعِرَاقِ الْمُرْهَقِ (*)
عَلَّهَا تَمْسَحُ مِنْ أَوْجَاعِهِ
عَلَّهَا تَجْمَعُ بَعْضَ الْمِرْقِ
عَلَّهَا تُصْبِحُ أَدْمَى مَرَحَبًا

(*) إشارة إلى قصيدة نزار التي مطلعها:

مرحباً يا عراق، جئتُ أغنيك وبعضُ من الغناء بكاءُ

تَتَّهَادِي نَحْوَهُ مِنْ جَلِّقًا!
رَبِّمَا بَلَقَيْسُ تَصْحَوْقَمَرًا
بَاكِيًا فِي الْكَرْخِ عِنْدَ الْغَسَقِ
فَإِذَا لَاقَيْتَهَا سَلِّمْ لَنَا
قُلْ لَهَا: أَهْلُكَ.. هَذَا مَا بَقِيَ!
رَبِّمَا دَجَلَةٌ تُخْفِي دَمَهَا
وَتُغَطِّي مَا بِهَا مِنْ حُرْقِ
لِتُلَاقِي فِيكَ زَوْجَ ابْنَتِهَا
فَتُحْيِيكَ بِوَجْهِهِ مُشْفِقِ
رَبِّمَا تُبْصِرُ مِنْ صَاحِبِكَ مَنْ
لَمْ يَزَلْ يَسْأَلُ فِي مُفْتَرَقِ!
رَبِّمَا.. كَمْ رَبِّمَا نُطَلِّقُهَا

فِي مَاسِينَا بِيَأْسٍ مُطَبِّقِ

يَذْهَبُ الصَّوْتُ وَيَبْقَى رَجْعُهُ

أَهْلَةٌ فِي فَمِنَا الْمُخْتَبِقِ!

يَا نِزَارَ الْحُبِّ يَكْفِيكَ غِنَى

أَنْ تَمُرَّ الْآنَ مِثْلَ الرَّمَقِ

كُلُّ بَيْتٍ عَرَبِيٍّ نَفْحَةٌ

مِنْكَ فِيهِ سَرِيانَ الْحَبَقِ

الَّذِي يَأْرَقُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى

فَأَلَّهُ مِنْكَ شَرِيكَ الْأَرْقِ

وَالَّذِي، أَوْ وَالتِّي يُقْلِقُهَا

هَاجِسٌ، تَسْبِقُهَا فِي الْقَأْقِ

والذي خان هَوَاهُ الْفُوهُ
قَبْلَهُ تَشْهَقُ إِنْ لَمْ يَشْهَقِ
مَرَّةً يَشْرِقُ أَصْحَابُ الْهَوَى
بَيْنَمَا أَنْتَ أَيْدُ الشَّرْقِ
كُلُّ حُبٍّ أَنْتَ فِيهِ شَاهِدٌ
وَشَرِيكٌ فِي الْأَسَى وَالرَّنَقِ!

أَنَا أَدْرِي أَنَّهَا مَجْمُورَةٌ
كُلُّ مَنْ يَعْلَقُ بِالشُّعْرِ شَقِي
رَبِّمَا يَذْبَحُنَا فِي لَحْظَةٍ
بَيْتُ شِعْرٍ بِنَاءِ الْفَلَقِ!
إِنَّ حَرْفًا بِالْهَوَى مُحْتَرِقًا
عِدْلُ حَرْفٍ بِاللُّطَى مُحْتَرِقِ

لَيْتَ هَذَا الْكَوْنُ يَغْدُو كُؤُهُ
عَاشِقًا لَا غَارِقًا فِي الْعَاقِبِ!

* * *

كالبحر صوتك..

ألقىت في حفل أربعينية
محمود درويش في دمشق

قيلَ لي جئتَ بغدادَ من قبلِ يومينِ محمود
لم أصدِّقْ،

فَمَا رَنَّا فِي مَكْتَبِي جَرَسُ التَّلْفُونِ
وَلَا قَالَ..

ثُمَّ تَنَبَّهْتُ..

كَيْفَ؟..

وَبِعْدَادُ مَا عَادَتِ الْآنَ؟!..

وَلَا رَنَّا؟..

قالوا بلى،

جَرَسٌ يُشْبِهُ الْمَوْتَ

رَدَّدَ.. محمود

وَانْقَطَعَ الصَّوْتُ

صَدَّقْتُ شَكِّي

بَغْدَادُ مَا عَادَتْ الْآنَ بَغْدَادُ

وَصَوْتُكَ مَحْمُودُ يَنَآيَ

تُتَابِعُ كُلُّ الْعَصَافِيرِ أَمْوَاجَهُ

وَهِيَ تَبْكِي..

كَالْبَحْرِ صَوْتُكَ يَا مَحْمُودُ يَا تِينِي

هَادِرٌ أَمْوَاجِهِ يَبْرِي شَرَايِينِي

كالبحر.. أسهر طول الليل أرقبه
ينأى، فينشُرني دمعاً ويطويني
وأنت توغل في المجهول أشرعةً
محمّلاتٍ بآلافِ الدّواوينِ
طويتها موجعاً، والعمر أجمعه
لم تبق منها هنا غير العناوينِ
ونبضةً علقت تبكي بزوايئةٍ
في أرض غزّة بين الماء والطّينِ
أكاد أسأل من منّا أمض أسى
أنا العراقيُّ، أم أنت الفلسطينيُّ؟!

عشرين عاماً تأخينا على دمنّا
نجري به نازفاً بين السّكاكينِ

كُلُّ الْمَعَابِرِ خَاضِبًا مَدَارِجَهَا
مِنْ يَوْمِ ذِي قَارِ حَتَّى يَوْمِ حِطِّينِ
مُؤْمَلِينَ الصُّغَارَ الْوَاتِقِينَ بِنَا
بِئْسَ مَجْدٍ مَجْدِ مَدَى التَّارِيخِ مَدْفُونِ
تُرَى أَحْسَنْتُمَا يَا أَنْتُمَا وَجَعًا
أَمْ رُحْتُمَا حَطْبًا بَيْنَ الْكَوَانِينِ؟!

عِشْرِينَ عَامًا طَوَّيْنَاهَا عَلَى عَجَلٍ
نَمُوتُ مَا بَيْنَ تِشْرِينَ وَتِشْرِينَ
حَتَّى ذَوَيْنَا.. وَهَذَا أَنْتَ رُحْتَ سَنَى
أَمَّا أَنَا، فَلَايِي اللَّيْلِ تُبْقِينِي؟!

يَا أَقْرَبَ النَّاسِ مِنْ جُرْحِي وَمِنْ وَجَعِي

كَمْ ضَجَّ يَا سِي، وَكَمْ حَاوَلْتَ تَطْمِينِي؟

كُلُّ الْمَرَابِدِ كُنَّا فِي مَجَامِرِهَا
وَإِخْوَةَ الشُّعْرِ بَيْنَ الْحُورِ وَالْعَيْنِ
وَكَنتَ تُورِي لِيَا لِيَهُمْ مُشَاكِسَةً
فَيَضْحَكُونَ، وَلَكِنْ ضِحْكَ مَغْبُونِ!
مَا جِئْتَ بَغْدَادَ إِلَّا وَالنَّخِيلُ لَهُ

مِمَّا شَدَّوْتَ نَزِيفًا فِي الْعَرَاجِينِ!

وَلَا انْقَضَى مَرِيدٌ يَوْمًا حَضَرْتَ بِهِ
إِلَّا وَأَنْتَ حَبِيبٌ لِلْمَلَايِينِ

وَكَنتَ مُحَمَّدٌ أَدْنَى مِنْكَ مَجْمَرَتِي
وَكَنتَ، مُحْتَفِيًّا بِالْجَمْرِ، تُدْنِينِي

حِينًا تَوَاخَى الْمَاسِي بَيْنَ أَحْرُفِنَا

وَيَفْعَلُ الْحُبُّ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ

حَتَّى لِيَكْتُبَ كُلُّ وَجَدٍ صَاحِبِهِ

لَأَنََّّهُ بِشَجَاهِ جِدِّ مَسْكُونٍ!

هذي القصيدة شعري.. أمس عِشْتُ ^٩ ديوان المراثي - م ٩

وَعِشْتُ فِيهَا.. وَكَادَتْ أَنْ تُوَافِيَنِي

كَتَبْتَهَا أَنْتَ.. قُلْ لِي كَيْفَ تَسْبِقُنِي

إِلَى دَمِي، مُسْتَحَمًّا فِي بَرَائِيَنِي؟!

محمود.. تَذَكَّرْ هَذَا..؟؟.. قُلْتَهُ عَلَانًا

وَأَنْتَ تَرَجَفُ حَتَّى كِدْتَ تُبْكِيَنِي

وَكَانَ أَوَّلَ يَوْمٍ لِلِقَاءِ لَنَا

وَالآنَ.. مَا زِلْتَ حَتَّى الْآنَ تَشْجِيَنِي

ما زلتَ تُوَقِّظُ أوجاعي فتألمني
وتوقدُ الجمرَ حتى في رياحيني

يا عنفوانَ فلسطينِ بأجمعِها
ويا فجيعةَ أهلي في فلسطينِ
بل يا فجيعةَ كلِّ الشَّعْرِ في وطني
والنَّخْلِ، والأرزِ، والزَّيتونِ، والتَّينِ

ويا فجيعةَ حتى الطَّيْرِ، أَعذَبِها
شدَّوا.. فجيعةَ أسرابِ الحَسَّاسينِ

تحوُّمٌ حولك.. تبكي.. محضَ أجنحةٍ
مُرفرفاتٍ، بصمتٍ جيِّدٍ مَطْعونٍ!

هل كنتُ أبكي.. أم انَّ الرِّيحَ تُسمِعني
نحيبَها بينَ أوراقِي، وتُوصيني

أَنْ لَا أَمِيلَ عَلَى قَوْمِي فَأُسْمِعَهُمْ
نَعْيِي مُحَمَّدٍ؟.. يَا شُمَّ الْعَرَانِينَ
محمودُ مات.. فأنتُم يا عُمومتَهُ
مِنْ صَوْتِهِ فِي مَلَاذٍ جِدِّ مَأْمُونِ!
مَا عَادَ يُقَلِّقُكُمْ، لَكِنْ سَيِّتْرُكُمْ
مَدَى الْمَدَى سُبَّةً بَيْنَ الدَّوَابِينِ!

هَاقِدٌ دَنَوْتُ لِأَوْكَارِ الشَّيَاطِينِ
محمود.. إِنْ تَهْتُ دَعَّ مَسْرَاكَ يَهْدِينِي!
مَا كَانَ أَجْدَرَ فِي هَذَا الْقَصِيدَةِ أَنْ
أَنْأَى بِهَا عَنِ نِضَايَاتِ الدَّهَاقِينِ
وَأَنْ أُنْزَهُ يَوْمًا أَنْتَ غُرَّتَهُ
عَنْ أَنْ يُشَابَّ بِذِكْرِ الْعَيْبِ وَالِدُونِ

لكنه وجعي.. أبقى أمج له
دماً وجمراً، وشعري من قرابيني
هذي مذابح أهلي، وهي مذبحتي
أنا الذبيح وأعمامي سكاكيني
أماً زواحف أمريكا فقد عبرت
إلي من دور هاتيك الثعابين
وبينها من بني أعمامنا عرب
مبطنون بحسقل ورايين!
وأنت خمسين عاماً كنت تصرخ في
وديانهم، فتثنى ألف أمين
حتى إذا استأنسوا أبصرت أيديهم
كلاً بها خنجر من صنع صهيون!

وَحَقُّ مَوْتِكَ يَا مَحْمُودُ، وَهُوَ دَمٌ
ذِمَامُهُ حَوْلَ أَعْنَاقِ الْمَلَائِكِينَ
وَإِنِّي وَاحِدٌ مِنْهُمْ، فَلَوْ خَفَرْتُ
عَيْنِي أَقُولُ لَهَا: عَنْ مِحْجَرِي بَيْنِي!
عَمَى لَهَا.. كَانَ أَوْلَى أَنْ نَمُوتَ مَعاً
مِنْ أَنْ تُدْجِنَ أَوْ تَرْضَى بِتَدْجِينِ!

سَنَلْتَقِي ذَاتَ يَوْمٍ .. سَوْفَ تَسْأَلُنِي
مَاذَا تَرَكْتِ؟ .. وَأَحْكِي.. سَوْفَ تُعْطِينِي

وَسَامَ أَنْ أَتَبَاهَى زَاهِيًا بِدَمِي
لَأَنَّهُ لَمْ يَصِرْ مَاءً لِيَحْمِينِي!

تُرَى أَوْفَيْتُ أَحْزَانِي مَدَامِعَهَا؟
وَقَدْ تَجَاوَزْتُ سِتِّيْنِي وَسَبْعِينِي؟

هُمَا إِبَائِي وَشِعْرِي صُنْتُ زَهْوَهُمَا
حَاشَاكَ مَحْمُودُ يَوْمًا أَنْ تُوَاسِيَنِي!
أَنَا حَمَلْتُ جِرَاحِي مُنْذُ كُنْتُ فَتًى
عَلَى الْمَنَابِرِ، أَوْ بَيْنَ الزَّنَازِينِ
وَأَنْتَ، قَلْبُكَ.. هَلْ أَحْسَنْتَ عِشْرَتَهُ
أَمْ كُنْتَ تَحْمِلُهُ حَمَلَ الْمَطَاعِينِ؟
وَكَانَ مَا بَيْنَنَا عَشْرٌ سَبَقَتْ بِهَا
وَهَا أَنَا الْآنَ أَسْعَى لِلثَّمَانِينِ
تُرَى أَأَثَقَلَنِي عُمُرِي فَأَبْطَأَنِي
وَأَنْتَ أَسْرَعْتَ فِي سَبْعِ وَسِتِّينِ؟!

* * *

يا شادي الأيك..

ألقيت في الحفل الكبير الذي أقيم
في دمشق، في ذكرى بدوي الجبل

أكبرتُ مَفْناكَ أن يَذوي كَمَفْنانا
يا شاديَ الأيكَ عُمَرَ الأيكَ ما هانا
يَبقى النَّدى ما بَدَا للضَّوءِ مِنْهُ مَدى
يَجري إليه، وَيَبقى الأيكَ سُلطانا!
وأنتَ يا سَيِّدي ناجيَتَهُ مَلَكاً
فَرَفَرَفَ الشَّجَرُ المَذهُولُ هَيمانا
غَلَغَلَتِ صَوْتِكَ في الأَنساعِ يُوقِظُها
حتى تَفْتَحَتِ الأوراقُ آذاننا!

أَسْرَجَتْ فِي الْغَيْمِ بَرْقَ الشُّعْرِ أَجْمَعَهُ
وَحِينَ أَمْطَرْتَ مَاجَ الْكَوْنِ أَلْحَانَا!
تُرَى أَغْنَيْتَ، أَمْ رَتَّلْتَهَا صُحُفًا
تَتَّحَالُ مِنْ مَلَكُوتِ اللَّهِ أَوْزَانَا؟
مَلَأْتَ أَنْهَارَ كُلِّ الْأَرْضِ أَشْرِعَةً
وَقُلْتَ لِلْمَاءِ: كُنْ يَا مَاءُ طُوفَانَا
وَجِئْتَ بِالْوَحْيِ آيَاتٍ مُعْطَرَةً
سَأَلْتَ بِهِنَّ فَجَنَّ الْمَاءُ سَكْرَانَا!
طُوبَاكَ وَالْأَيْكُ قَدْ أَهْدَاكَ بِهِجَتَهُ
نَحْنُ امْتُحِنَّا بِهِ وَرَدًّا وَأَغْصَانَا!
مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ.. وَأَيُّ رُؤْيٍ
لِلْوَحْيِ مَوْسَقَّتَهَا مَوْجًا وَشُطْرَانَا؟

سُبْحَانَ رَبِّكَ هَلْ دَاوُدُ خُصَّ بِهَا
هَذِي الْمَزَامِيرُ أَمْ خَصَّتْ سُلَيْمَانًا؟
فَحَاشَٰهَا لِابْنِهِ.. تَلَهُوَ أَصَابِعُهُ
بِهَا.. مَلَائِكَةٌ يُوقِظْنَ شَيْطَانَنَا!

يَا سَيِّدِي.. يَا نَدِيَّ الْحَرْفِ تَقْدَحُهُ
جَمْرًا، وَيَبْقَى عَلَى الْأَوْجَاعِ نَدِيَانَا
كَأَنَّ حَرْفَكَ، مِمَّا فِيهِ مِنْ وَهَجٍ
وَحُضْرَةٍ، نَبْعُ مَاءِ أَشْمَسِ الْآنَا!
كَأَنَّهُ، وَجَنَاحُ الْوَحْيِ يَحْمِلُهُ
نَجْمٌ يُشْعِشِعُ فِي الظُّلْمَاءِ نَشْوَانَا
وَنَحْنُ يَا سَيِّدِي أَوْرَاقُنَا اخْتَقَتْ
مِمَّا نَمُجُّ بِهَا دَمْعًا وَدُخَانَنَا

رِقَابُ أَحْرَفِنَا مَلَوِيَّةٌ أَبَدًا
فَوْقَ السُّطُورِ، فَتَخْشَاهَا وَتَخْشَانَا
صِرْنَا كِلَانًا نَخَافُ السُّطْرَ نَكْتُبُهُ
أَنْ يَسْتَفِيقَ، فَنُغْضِي عَنْ نَوَايَانَا!
فَنَحْنُ نُخْفِي، وَتُخْفِينَا قَصَائِدُنَا
تَحْتَ الرُّمُوزِ.. وَتَنْسَاهَا وَتَنْسَانَا!
سَبْعِينَ عَامًا طَوِينَا نُسْتَفِرُّ دَمًا
فَتَمَلُّ الأَرْضَ أَرْحَامًا مَنَايَانَا
يَلِدْنَ لِلنَّارِ أَزْكَى وَارِثِي دَمِنَا
إِذْ نَحْنُ فِيهَا ظُبًا أَلْبِسْنَ أَكْفَانَا!
تَبْقَى الْقُبُورُ وَوِلَادَاتٍ مُوَجَّأَةً
مَادَامَ فِيهَا كِبَارُ الهَمِّ سَكَّانَا!

سَبْعِينَ عَامًا، وَتَدْرِي السُّوحُ أَجْمَعَهَا
أَنَا أَقْمَنَا بِجُرْفِ الْمَوْتِ مَرْسَانَا
أَبْهَى أَوْلَادِنَا كَانُوا بِهَا شُهْبًا
تَهْوِي وَأَرْكَانُهَا تَهْتَزُّ أَرْكَانَا
وَالآنَ صِرْنَا نَخَافُ الْحَرْفَ نَكْتُبُهُ
وَنَتَّقِي قَبْلَ كُلِّ النَّاسِ قُرْبَانَا!
يَا لَيْتَ تِلْكَ السِّنِّينَ الْغُرَّ مَا سُقِيَتْ
وَلَيْتَ ذَاكَ النَّزِيفَ الْمُرَّ مَا كَانَا!

يَا سَيِّدِي الْبَدْوِيِّ الْكَرْبُ زَلَزَلَنِي
هَبْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْعُرْجَ سَيِّقَانَا
لَعَنَّي بِشْرَائِيْنِي، عَلَى عَرَجِي

أُقِيمُ مِنْهَا لِبَعْضِ النَّاسِ مِيزَانَا
أَقُولُ لِلْمُحَدِّقِينَ الْآنَ بِي عَرَبِيًّا
أَخَزَاكُمْ اللَّهُ أَعْمَامًا وَإِخْوَانَا
بِلَادِكُمْ كُلُّهَا حُزَّتْ حَنَاجِرُهَا
وَمَا تَزَالُونَ لِلْجَلَادِ أَعْوَانَا!
أَقُولُ إِنَّ بَنِيكُمْ يَسْأَلُونَ غَدًا:
أَبَاؤُهُمْ أَيْنَ كَانُوا مِنْ رَزَايَانَا؟
مَاذَا نَقُولُ لَهُمْ؟.. كَانُوا سَمَاسِرَةً
لِلْمُعْتَدِي؟.. بِأَخْسِ الْبَيْعِ أَثْمَانَا!
مَاذَا نَقُولُ؟.. غَزَّتْنَا مِنْ مَنَازِلِكُمْ
هَذَا الْأَفَاعِي الَّتِي هِيضَتْ بِمَأْوَانَا؟
وَأَنْتُمْ، لَا يَبِيلُ اللَّهُ رَيْقَكُمْ وَ

بيوتكم صيرن للغازين أوطاننا؟

وَأَنَّ مَجْمَرَةً شَاعُوا مَادَاخِئُهَا

مِنْ كُلِّ أَيْبَاتِكُمْ يَنْفُثْنَ دُخَانًا

عَدَا تُشَبُّ بِأَرْضِ الْعُرَبِ أَجْمَعِهَا

وَتَعْتَلِي شَفْعَةَ الْإِسْلَامِ نِيرَانًا؟

مَاذَا نَقُولُ إِذَا كَانَتْ كِرَامَتُكُمْ

تَبْكِي عَلَى قَدْرِهَا مِنْ فَرَطٍ مَا هَانَا!

صِرْتُمْ تَغِيظُ أَذَلَّ النَّاسِ ضِحْكُكُمْ

مَا قِيلَ عَنْ وَاحِدٍ مِنْ بَيْنِكُمْ: خَانَا!

كَأَنَّهَا نُكْتَةٌ تُسْتَضْحَكُونَ بِهَا

هَلْ أَصْبَحَتْ لُغَةُ الْإِذْلَالِ إِدْمَانًا؟!

أَمْ زَادَ قَدْرُكُمْ فِي الذُّلِّ مَرْتَبَةً

إذ صرتم الآن خُدَّاماً وعبداًنا؟!

يا سيدي عذر صوتي أن يمجَّ ده أ
ديوان المراثي - م ١٠

صرنا نُجَدِّفُ حَدَّ الكَفْرِ أحيانا

فأيُّ أَسْتارِنَا لِالآنَ ما هُتَكَّتْ؟

وأيُّ أَقْطارِنَا لِالآنَ ما عانى؟

ها ساحةُ العُربِ والإسلامِ مَذْبَحَةٌ

وها دِمَشقُ تُبَاكي الآنَ بَعْدانا

صَرَّحْ هَوَى لا نَخونَا فِيهِ مُعْتَصِماً

ولا نَدَبنا، ولو بِالْهَمْسِ، مَروانا

ولا صَرَخنا كَمَا المَطْعونُ يَصْرُخُ مِن

أعماقِ طَعْنَتِهِ كِبِراً ونُكرانا

لكنْ نُنَمِّقُ حَدَّ اللَّمَعِ صَرَخَتنا

وَقَدْ نُرَقِّقُ حَدَّ الدَّمَعِ شَكْوَانَا

صَرْنَا أَذْلُ الْوَرَى يَبْرِي عَصَاهُ لَنَا
وَنَحْنُ نَبْسِمُ إِشْفَاقاً وَإِذْعَانَا
أَفْدِيكَ يَا سَيِّدِي إِذْ قَلْتِ مُنْذَبِحاً
[تَأْتِقُ الذُّلُّ حَتَّى صَارَ غُفْرَانَا!]

يَا سَيِّدِي الْبَدَوِيِّ الْآنَ يَشْفَعُ لِي
هَذَا النَّزِيفُ بِأَنْ آتَيْكَ ظَمَانَا
أَقُولُ جَفَّتْ مِيَاهُ الْعُرْبِ أَجْمَعُهَا
وَأَنْتِ أَحْفَلُهَا بِالْمَاءِ وَدِيَانَا
فَهَبْ فَمَي رَشْفَةً مِمَّا زَخَرَتْ بِهِ
مَدَى حَيَاتِكَ أَنْهَاراً وَغُفْرَانَا

لَعَنَّيْ، وَلَطَى بَغْدَادَ يَنْظُرُ لِي
أَجْرِي وَلَوْ جَدَوْلًا فِي جَمْرِهِ الْآنَا
لَعَلَّ صَوْتِي يعلو فِي مَنَائِرِهَا
بِبَعْضِ صَوْتِكَ إِنجِيلًا وَقُرْآنَا
يُقَبَّلُ النَّاسَ إِنْسَانًا فَإِنْسَانَا
وَيَحْضُنُ الدُّورَ أَبْوَابًا وَجُدْرَانَا
يَقُولُ دَفْقَةً مَاءٍ مِنْ دِمَشْقٍ أَتَتْ
تَسْقِيكُمْ الْآنَ عَطَشَانَا فَعَطَشَانَا
تُبَلِّسِمُ الرُّوحَ حَتَّى تَسْتَفِيقَ بِهَا
تِلْكَ المَرَوَاتُ غَنَّاهُنَّ أَزْمَانَا
إِذْ ذَاكَ يَا سَيِّدِي يَغْضُو بِأَعْيُنِنَا
مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ سُلَيْمَانَا!

* * *

- ۱۵۷ -

هَبْهَا دُعَاؤَكَ

إلى روح الشاعر الكبير السيد
مصطفى جمال الدين .
ألقيت في دمشق في الاحتفال
بالتذكري الثانية عشرة لرحيله .

هَبَّهَا دَعَاءُكَ، فَهِيَ لَا تَتَذَكَّرُ
مِنْ فَرَطٍ مَا اشْتَبَكَتَ عَلَيْهَا الْأَعْصُرُ^(*)
وَأَعِيدْ نِدَاءَكَ مَرَّةً أُخْرَى لَهَا
فَلَعَلَّ عَبْرَتَهَا بِهِ تَتَكَسَّرُ^س
وَلَعَلَّهَا، وَهِيَ الذَّبِيحَةُ، سَيِّدِي
بِمَهْيَبِ صَوْتِكَ عُرِيهَا يَتَدَثَّرُ!

(*) في المطلع إشارة إلى قصيدة (بغداد) للسيد مصطفى جمال الدين: بغدادُ ما اشتبكت عليكِ الأعْصُرُ.

وَلَعَلَّ مَنْ وَثَبُوا عَلَى حُرْمَاتِهَا
نَزَوَاتُهُمْ بِجَلَالِهِ تَتَعَثَّرُ

هَبَّهَا جَمَالَ الدِّينِ صَوْتِكَ حَانِيًا
يَعْلُو، فَيَخْشَعُ مِنْ تَقَاهِ الْمُنْبَرِ!
فَعَسَى مَسَامِعُهُمْ، وَبَعَضُ قُلُوبِهِمْ
تَتَدَى بِهِ مِنْ قَبْلَمَا تَتَحَجَّرُ

وَعَسَاكَ تُدْرِكُ قَطْرَةً مِنْ مَائِهَا
أَوْ نَخْلَةً يَبْسُتَ تَعُودُ، فَتُثْمِرُ!
وَلَعَلَّ طَاعِنَهَا، وَأَنْتَ تَهْزُهُ
يَصْحُو، فَيَسْقُطُ مِنْ يَدَيْهِ الْخَنْجَرُ!

بَغْدَادُ أُخْتُكَ مُصْطَفَى، فَأَقِمِّ لَهَا

أَنْتِ الصَّلَاةُ، لَعَلَّهَا تَتَأْتِرُ
بِعَمِيقِ وَجْدِكَ.. عَلَّ فِي شُطَّانِهَا
جُرْفًا تُلَامِسُهُ فَلَا يَتَفَطَّرُ!
فَلَقَدْ عَهَدْتُكَ وَالْمُرْوَةَ غَيِّمَةً
فِي صَوْتِكَ الْحَانِي تَهْلُ وَتُمْطِرُ!
تَسْقِي الْهَوَى.. يَا رَبَّ عَوَّسَجَةٍ بِهِ
بَقِيَتْ طِوَالَ حَيَاتِهَا تَخْضُوضِرُ!
صِفَةُ «الْجَمِيلِ» كَأَنَّ كُلَّ حُرُوفِهَا
تُتَمَّى إِلَيْكَ، وَكُلُّهَا بِكَ تَزْهَرُ!
وَجْهًا، وَأَخْلَاقًا، وَعَمِّقَ مُرْوَةٍ
وَتُقَى.. وَأَعْظَمَهُنَّ أَنَّكَ تَأْسِرُ
بِوَدِيعِ طَبْعِكَ، حَدَّ أَنْ مَحَبَّةً
تَسَابُ مَلَاءَ الرُّوحِ حَيْثُ تَوْشِّرُ!

عُذْرًا أَبَا حَسَنِ.. هُمُومِي جَمَّةٌ
وَوَرِيْقُ غُصْنِكَ رَغَمَ نَائِكَ أَخْضَرُ
وَأَخَافُ مِنْ وَجَعِي عَلَيْهِ فَقَدْ مَضَتْ
عِشْرُونَ عَامًا بَيْنَنَا تَتَحَسَّرُ
أَنَا أَضَعَعْنَا فِي الْأَسَى أَعْمَارَنَا
وَالْحُزْنَ فِي أَعْمَاقِنَا يَتَجَذَّرُ
لَمْ نَلْتَفِتْ لِلْمُحَدِّقَاتِ بَيْتِنَا
وَالْمُحَدِّقِينَ بِهِ، وَأَيْنَ تَسْتَرُّوا
لَمْ نَسْأَلِ الْأَبْوَابَ عَنِ أَقْفَالِهَا
لَمْ نَدْرِ مَاذَا خَلْفَهُنَّ يُدْبِرُ
وَإِذَا بِنَا، فِي لِيَاكَتَيْنِ، مُبَاحَاةٌ

حَتَّىٰ مَحَارِمُنَا لِمَنْ يَتَسَوَّرُ!

أَمَّا الدَّمَاءُ، فَلَوْ وَصَفْتُ أَقْلَهَا
لَجَرَّتْ دُمُوعُكَ فِي ضَرِيحِكَ تَزْحَرُ!

هَذَا دَمُ الْفُقَرَاءِ يَنْزِفُ مُصْطَفَى
وَفَقِيرُهُمْ يَبْكِي عَلَيْهِ الْأَفْقَرُ!

هَذَا دَمُ الْعُلَمَاءِ.. مَنْ أَحَبَّتَهُمْ
ذُبِحُوا عَلَى مَرَأَى الْأَنَامِ وَسُفِّرُوا!

وَدَمُ الَّذِينَ كَتَبَتْ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ
بَنَوْا الْحَضَارَةَ فِي الْعِرَاقِ، وَعَمَّرُوا

دَمٌ هُوَ لَأَيْسَلُ، لَا دَمٌ مِّنْ غَزَا
وَحِذَاؤُهُ بَرِقَابِنَا يَتَأَمَّرُ!

يَا سَيِّدِي، بَغْدَادُ حَتَّى شَمْسِهَا
سَوْدَاءُ مِمَّا وَجَّهَهَا يَتَعَفَّرُ!
لَا مَاؤَهَا يَنْسَابُ، لَا ظَلْمَاؤُهَا
تَجَابُ.. لَا إِعْسَارُهَا يَتَيْسَرُ
أَمَّا مَوَاسِمُ شِعْرِهَا فَجَمِيعُهَا
مِنْ بَعْدِ صَوْتِكَ عَارِضٌ لَا يُذَكَّرُ!
عُذْرًا أَبَا حَسَنِ، وَمِثْلَكَ عَاذِرُ
لُغْتِي عَلَى وَجْعِي، وَمِثْلِي يُعْذِرُ
إِنَّا تَقَاسَمْنَا التَّشْرُدُ.. عِشْتُهُ
قَبْلِي، وَهِيَ أَنْذَا بِهِ أَتَعَفَّرُ
لَنْ أَدْعِي أَنِّي صَبُورٌ فِي الْأَذَى
بَعْضُ الْأَذَى مِنْ كُلِّ صَبْرٍ أَكْبَرُ!

لَكَتَهُ وَطَنِي يَهِيَّأُ نَعَشَهُ
لِيَصِيرَ أَوْطَاناً تَضِيعُ وَتُطْمَرُ
مِنْ أَجْلِ مَنْ ذُبِحَ الْعِرَاقُ، وَأَهْلُهُ
فِي كُلِّ أَرْجَاءِ الْبَرِّيَّةِ بُعْثِرُوا؟
مِنْ أَجْلِ مَنْ مَلِيونُ طِفْلٍ شُرِّدُوا
وَحَدَائِقُ السَّرَطَانِ فِيهِمْ تُزْهَرُ؟!
مِنْ أَجْلِ مَنْ يَا سَيِّدِي أَبَاؤُنَا
وَصِغَارُنَا مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُجِّرُوا؟
كُلُّ بَأْرَضٍ.. لَا أَبَا لِأَبِيهِمْ
الْيَابِسَاتُ نَأَتْ بِهِمْ وَالْأَبْحُرُ
وَلَمَنْ بَنَادِقُ أَهْلِنَا وَنِصَالُهُمْ
بَعْضٌ عَلَى أَعْنَاقِ بَعْضٍ تُشْهَرُ؟

أَفْهَذِهِ لُغَةً الْعَدَالَةِ مُصْطَفَى

جَاءُوا بِهَا لِيُقَوِّمُوا، وَيَحَرِّرُوا؟

لِتَنَامَ إِسْرَائِيلُ مِلَّةً جَفُونَهَا؟

وَكَلَابُهَا فِي أَرْضِنَا تَتَبَخَّرُ؟

لِتُقِيمَ أَمْرِيكَ بَعْقَرِ بِيوتِنَا

وَنَظْلُ نَحْنُ لَهَا خِرَافاً تُتَحَرُّ؟

أَفَلَمْ يَكُنْ إِلَّا نَزِيْفُ دِمَائِنَا

سُقِيَا لِكِي يَنْمُو الْخَرَابُ الْأَكْبَرُ؟!

عَفَّوْا ابْتِسَامَتِكَ الَّتِي أُدْرِي بِهَا

حَتَّى بِأَقْسَى الْمُوجِعَاتِ تُتَوَرَّ

أَنْتَ الْإِمَامُ السَّمَّحُ، وَالْعَلَمُ الَّذِي

أَبْدَأُ مَعَالِمَ وَجْهِهِ تَسْتَبِشِرُ
مَا رَأَى مَنْ رَأَى، فِي أَوْجَاعِهِ
إِلَّا، عَلَى أَوْجَاعِهِ، يَتَّسِدِرُ!
يَا صَاحِبَ الْقَلَمِ الْأَحْسَنُ كَأَنَّهُ
تَبْكِي السُّطُورَ عَلَيْهِ وَهُوَ يُسَطِّرُ
مِنْ فَرَطٍ مَا يَبْرِي حُشَاشَتَهُ بِهَا
أَرَأَيْتُمْ وَقَلَمًا بِحَرْفٍ يُؤَسِّرُ؟
لِلَّهِ دَرُكٌ مُصْطَفَى، وَمُبَارَكٌ
قَبْرٌ حَوَاكٍ، وَإِنْ تَكُنْ لَا تُقْبَرُ!

* * *

في رحاب الحسين

١٩٩٥

- ١٧٠ -

ديوان المراثي - م ١١

قَدِمْتُ، وَعَفْوَكُ عَنِ مَقْدَمِي
حَسِيرًا، أَسِيرًا، كَسِيرًا.. ظَمِي
قَدِمْتُ لِأَحْرَمٍ فِي رَحْبَتَيْكَ
سَلَامٌ لِمَشَاكٍ مِنْ مَحْرَمٍ!
فَمُذُ كُنْتُ طِفْلًا رَأَيْتُ الْحُسَيْنَ
مَنَارًا إِلَى ضَوْئِهِ أَنْتَمِي
وَمُذُ كُنْتُ طِفْلًا وَجَدْتُ الْحُسَيْنَ
مَلَاذًا بِأَسْوَارِهِ أَحْتَمِي

وَمَذَّ كُنْتُ طِفْلاً عَرَفْتُ الْحُسَيْنَ
رِضَاعاً.. وَالآنَ لَمْ أَفْطَمِ

سَلَامٌ عَلَيْكَ فَأَنْتَ السَّلَامُ
وَإِنْ كُنْتَ مُخْتَضِباً بِالْأُفْطَمِ!

وَأَنْتَ الدَّلِيلُ إِلَى الْكَبِيرَاءِ
بِمَا دِيسَ مِنْ صَدْرِكَ الْأَكْرَمِ!

وَإِنَّكَ مُعْتَصِمُ الْخَائِفِينَ
يَا مَنْ مِنَ الذَّبْحِ لَمْ يُعْصَمِ!

لَقَدْ قَلَّتْ لِلنَّفْسِ: هَذَا طَرِيقُكَ
لَأَقِي بِهِ الْمَوْتَ كَيْ تَسَلِمِي

وَحُضَّتْ وَقَدْ ضُفِرَ الْمَوْتُ ضُفْرًا

فَمَا فِيهِ لِلرُّوحِ مِنْ مَخْرَمِ

وما دارَ حولك، بل أنتِ دُرَّتِ
على الموتِ في زردٍ مُحَكَّمِ
مِنَ الرَّفْضِ وَالكَبْرِيَاءِ الْعَظِيمَةِ
حَتَّى بَصُرْتَ، وَحَتَّى عَمِي
فَمَسَّكَ مِنْ دُونِ قَصْدٍ فَمَاتَ
وَأَبْقَاكَ نَجْمًا مِنَ الْأَنْجُمِ!

ليومِ الْقِيَامَةِ يَبْقَى السُّؤَالُ
هَلِ الْمَوْتُ فِي شَكْلِهِ الْمُبْهَمِ
هُوَ الْقَدْرُ الْمُبْرَمُ أَلَّا يُرَدُّ
أَمْ خَادِمُ الْقَدْرِ الْمُبْرَمِ؟!

سَلَامٌ عَلَيْكَ حَبِيبَ النَّبِيِّ

وَبُرْعَمَهُ.. طَبِيتَ مِنْ بُرْعَمِ
حَمَلْتِ أَعَزَّ صِيفَاتِ النَّبِيِّ
وَفُزْتِ بِمَعِيَارِهِ الْأَقْسَمِ
دَلَالَةً أَنَّهُمْ وَخِيَّ رُوكَ

كَمَا خِيَّ رُوهُ، فَلِمَ تُتَلِّمِ
بَلِ اخْتَرْتَ مَوْتَكَ صَلَّتِ الْجَبِينِ
وَلِمَ تَتَلَفَّتْ.. وَلِمَ تَتَدَمِ
وَمَا دَارَتْ الشَّمْسُ إِلَّا وَأَنْتِ

لِلْأَلْهَامِ كَالْأَخِ التَّوَامِ!

سَلَامٌ عَلَى آلِكَ الْحُومِ
حَوَالِيكَ فِي ذَلِكَ الْمَضْرَمِ

وَهُمْ يَدْفَعُونَ بُعْرِي الصُّدُورِ
- ١٧٥ -

عَنْ صَدْرِكَ الطَّاهِرِ الْأَرْحَمِ
وَيَحْتَضِنُونَ بِكِبْرِ النَّبِيِّينَ
مَا غَاصَ فِيهِمْ مِنَ الْأَسْهُمِ
سَلَامٌ عَلَيْهِمْ.. عَلَى رَاْحَتَيْنِ
كُشْمَسَيْنِ فِي فَأْكَ أَقْسَمِ
تَشْعُ بَطُونُهُمَا بِالضِّيَاءِ
وَتَجْرِي الدِّمَاءُ مِنَ الْعِصَمِ!
سَلَامٌ عَلَى هَالَةِ تَرْتَقِي
بِالْأَلْهَامِ مُرْتَقِي مَرِيَمِ
طَهْوَرِ، مُتَوَجِّةٍ بِالْجَلَالِ
مُخَضَّبَةٍ بِالدَّمِ الْعَنَدَمِ
تَهَاوَتْ فَصَا حَةُ كُلِّ الرَّجَالِ

أَمَامَ تَفَجُّعِهَا الْمُهَيَّمِ
فَرَحَاتٍ تُزْعِزُ عَرْشَ الضَّلَالِ
بِصَوْتِ بَأْوَجَائِهِ مُفْعَمِ
وَلَوْ كَانَ لِلْأَرْضِ بَعْضُ الْحَيَاءِ
لَمَادَتْ بِأَحْرَفِهَا الْيَتِيمَ!

سَلَامٌ عَلَى "الْحُرِّ" فِي سَاحَتَيْكَ
وَمَقْحَمِهِ، جَلَّ مِنْ مَقْحَمِ
سَلَامٌ عَلَيْهِ بِحَجْمِ الْعَذَابِ
وَحَجْمِ تَمَرُّقِهِ الْأَشْهَمِ
سَلَامٌ عَلَيْهِ.. وَعَتَّبُ عَلَيْهِ
عَتَّبَ الشَّغُوفِ بِهِ الْمَغْرَمِ!

فَكَيْفَ، وَفِي أَلْفِ سَيْفٍ لُجِمَتْ
- ١٧٧ -

وَعَمْرَاكَ يَا "حُرًّا" لِمَ تُلْجِمُ؟!
وَأَحْمَمْتَ كَيْفَ..؟.. فِي أَلْفِ سَيْفٍ
وَلَوْ كُنْتُ وَحْدِي لِمَ أُحْجِمُ
وَلِمَ أَنْتَظِرُهُمْ إِلَى أَنْ تَدُورَ
عَلَيْكَ دَوَائِرُهُمْ يَا دَمِي
لَكُنْتُ انْتَزَعْتُ حُدُودَ الْعِرَاقِ
وَلَوْ أَنَّ أُرْسَانَهُمْ فِي فَمِّي!
لَغَيَّرْتُ تَارِيخَ هَذَا التُّرَابِ
فَمَا نَالَ مِنْهُ بَنُو مُلْجِمٍ!
سَلَامٌ عَلَى "الْحُرِّ" وَعِيَاءَ أَضَاءِ
وَزُرْقَاءَ مَنْ لَيْلَهَا الْمَظْلِمِ
أَطَلَّتْ عَلَى أَلْفِ جَيْلٍ يَجِيءُ
- ١٧٨ -

وغاصت إلى الأقدم الأقدم
فأدركت الصوت.. صوت النبوة
وهو على موته يرتمي
فما ساومت نفسها في الخسار
ولا ساومتها على المغنم
ولكن جئت وجفون الحسين
ترف على ذلك المجثم
ويا سيدي يا أعز الرجال
يا مشرعاً قط لم يعجم
ويا بن الذي سيفه ما يزال
إذا قيل يا ذا الفقار احسم

تُحَسُّ مَرَوَّةَ مَلِيُونِ سَيْفٍ
- ١٧٩ -

سَرَّتْ بَيْنَ كَفِّكَ وَالْمَحْزَمِ!
وتُوشِكُ أَنْ.. ثُمَّ تُرْخِي يَدَيْكَ
وتُتَكِرُ زَعَمَكَ مِنْ مَزَعَمِ
فَأَيْنَ سَيُوفُكَ مِنْ ذِي الْفَقَارِ
وَأَيْنَكَ مِنْ ذَلِكَ الضَّيِّغَمِ!

عَلِيٌّ.. عَلِيٌّ الْهُدَى وَالْجِهَادِ
عَظُمْتَ لَدَى اللَّهِ مِنْ مُسْلِمِ!
وَيَا أَكْرَمَ النَّاسِ بَعْدَ النَّبِيِّ
وَجْهًا.. وَأَغْنَى أَمْرِيءٍ مُعْدَمِ!
مَلَكَتِ الْحَيَاتَيْنِ دُنْيَا وَأُخْرَى
وَلَيْسَ بِبَيْتِكَ مِنْ دِرْهَمِ!

فِدَى لُخْشُوعِكَ مِنْ نَاطِقِ

فدأءٌ لَجُوعِكَ مِنْ أَبْكَامٍ!

قَدِمْتُ، وَعَفْوَكَ عَنْ مَقْدَمِي
مَزِجاً مِنَ الدَّمِ وَالْعَلَقَمِ

وَبِي غَضَبٌ جَلَّ أَنْ أُدْرِيهِ
وَنَفْسٌ أَبَتْ أَنْ أَقُولَ أَكْظِمِي

كَأَنَّكَ أَيْقَظْتَ جُرْحَ العِرَاقِ
فَتَيَّارُهُ كُلُّهُ فِي دَمِي!

أَلَسْتَ الَّذِي قَالَ لِلْبَاتِرَاتِ
خُذِينِي.. وَالنَّفْسِ لَا تُهْزَمِي؟
وَطَافَ بِأَوْلَادِهِ وَالسِّيُوفِ
عَلَيْهِمْ سَوَارٌ عَلَى مِعْصَمِ

فَضَجَّتْ بِأَضْلَعِهِ الكَبِيرِيَاءِ

وصاح على موتيه: أقدم!
كذا نحن يا سيدي يا حسين
شداد على القهر لم نُشكَم
كذا نحن يا آية الرافدين
سواترنا قط لم تُهدم
لئن ضج من حولك الظالمون
فإننا وكنا إلى الأظلم
وإن خانك الصحب والأصفياء
فقد خاننا من له نتمى!
بنو عمنا.. أهنا الأقربون
واحدهم صار كالأرقم
تدور علينا عيون الذئاب

فَنَحْتَارُ مِنْ أَيِّهَا نَحْتَمِي!

لهذا وقفنا عُرَاةَ الجِرَاحِ

كباراً على لؤمِها الألامِ

فيا سيّدي، يا سَنَا كَرِيبَاءِ

يُأَلِّيءُ فِي الحَلَاكِ الأَعْتَمِ

تَشُعُّ مِنْ أثارِهِ بالضِيَاءِ

وَتَزْفُرُ رَبُّ الوَجَعِ المُلْهَمِ

ويا عطشاً كلُّ جَدْبِ العِصُورِ

سَيَنْهَلُ مِنْ وَرْدِهِ الزَّمْزَمِ

سَأَطْبَعُ ثَغْرِي على موطنَيْكَ

سَلاماً لأَرْضِكَ مِنْ مَلِئَمِ!

* * *

- ۱۸۴ -

يا ماليء الدنيا دماً ومروءة

هَتَفَ الْبَشِيرُ فَقَبَّلَ ابْنَكَ يَا عَلِي
بِالْمَعْنَيْنِ: مُقَبَّلٌ وَمُقَبَّلٌ
تَدْرِي، وَيَدْرِي اللَّهُ قَبْلُ، وَجَدَهُ
إِحْيَاءَ مَوْلِدِهِ بِيَوْمِ الْمَقْتَلِ!
طَرَفَا هِلَالٍ قَوْسُهُ عَرَضَ السَّمَاءِ
فِي الشَّمْسِ ذَاكَ، وَذَا بَلِيلٍ أَلْيَلِ
طَرَفَا هِلَالٍ مِثْلَ سَيْفٍ هَائِلٍ
شَطَرَ السَّمَاءَ، وَظَلَّ يَصْرُخُ: يَا هَلِي

بِدَمِي فَصَلْتُ اللَّيْلَ عَنِ بَلَجِ الضُّحَى
كِي يَسْتَقِيمَ، فَيَا سَيُوفُ تَعَجَّلِي!

هَتَفَ الْبَشِيرُ، فَاقْبَلْ ابْنَكَ يَا عَلِي
هَنِّيءَ بِهِ الزَّهْرَاءَ فَهُوَ ابْنُ الْوَلِيِّ
هُوَ مَنْ عَلَى شَفَتَيْهِ رَفٌّ مُقْبِلًا
تَغْرُ النَّبِيِّ.. حَنَا عَلَى الْوَجْهِ الْخَلِيِّ
وَتَكَادُ أَشْرَفُ دَمْعَةً مِنْ عَيْنِهِ
تَهْمِي، وَلَكِنْ عَيْنُهُ لَمْ تَهْمَلِ
جَدُّ، وَلَكِنْ أَيُّ جَدٍّ مُرْسَلٍ
سَبَطُ، وَلَكِنْ سَبَطُ جَدٍّ مُرْسَلٍ
وَهُوَ الْحَسِينُ، شَهِيدُ أَشْرَفِ وَقْفَةٍ

هَذَا الزَّكِيُّ الْأَنْبَلُ بْنُ الْأَنْبَلِ
هَذَا الَّذِي أَسَرَ الزَّمَانَ بِمَوْتِهِ
وَأَقَامَ عَنِ أَسْرِ الزَّمَانِ بِمَعْزَلِ!

يَا مَالِي الدُّنْيَا دِمَاءً وَمَرْوَةً
وَمُكَبَّلًا فِي زِيٍّ غَيْرِ مُكَبَّلِ
دَارَتْ عَلَيْهِ الدَّائِرَاتُ وَلَمْ يَكُنْ
فَرْدًا، وَلَا كَانَ الْحُسَيْنُ بِأَعْزَلِ
كَانَتْ حُشَاشَةُ جَدِّهِ فِي صَدْرِهِ
وَمِنْ اِقْتِدَارِ أَبِيهِ كَانَ بِجَحْفَلِ
لَكِنَّهُ الْقَدْرُ الْعَظِيمُ أَرَادَهَا
عِصْمَاءَ لَمْ تُتَأَمَّ، وَلَمْ تَتَمَهَّلِ!
فَاخْتَارَهَا، وَاخْتَارَهُ قَدْرًا لَهَا

مُتَبَتِّلٌ يَسْعَى إِلَى مُتَبَتِّلٍ!
حتى إذا التقيَا تَهَيَّبَ مَوْتُهُ
فهوى الحسينُ عليه مثلَ الأجدلِ!
هي ميتةٌ عدلَ الحياةِ بأسرها
أقلَ الزَّمانِ ونجمها لم يأفلِ!
يا يومَ ميلادِ الحسينِ، ولم نجدُ
إلاكَ ميلاداً بموتٍ يَخْتَلِي
فيكونُ هذا ذا، وتُصبحُ ميتةٌ
كولادةٍ، لكن بطعمِ الحنظلِ!
حتى تكادَ الأرضُ في ميلادهِ
تبكي، وتُعلنُ زهوها في المقتلِ!
هو مولدُ القيمِ العظيمةِ كلِّها

ونزولها بالموتِ أعظمَ منزلٍ!

قُلْ لِلنُّجُومِ بِكَرْبَلَاءَ تَرْجَلِي

وعلى منائره المهبّاتِ انزلي

وخذني سنَى منها لألفِ قادمٍ

وخذني دموعاً للمجرّةِ واهطلي

ألفاً، وقولي للعصورِ جميعها

هيهات.. أنتِ بمثلهِ لن تحبلي!

من أين تجتمعُ النبوءةُ مرّةً

أخرى بميقاتِ السّماءِ المنزّلِ؟!

يومَ الحسين، وإذ أنادي يومه

ميلادهُ ورحيلهُ يثبانِ لي!

جَنَحِي سَنِيَّ وَدَمٍ تُحَلِّقُ فِيهِمَا
نَفْسٌ إِلَى فَلَكَ النُّبُوَّةُ تَعْتَلِي
لِلَّهِ دَرْكٌ مَنْ وَلِيْدٍ بِاسْمِ
لِلَّهِ دَرْكٌ مَنْ شَهِيدٍ أَبَسَلِ!

وَلِدَ الْحُسَيْنِ فِيَا عِيُونُ تَكْحَلِي
مَنْهُ، وَيَا كَلَّ الْحَنَاجِرِ هَلْهَلِي
ثُمَّ اجْعَلِي الْأَجْفَانَ غَيْمَ مَدَامِعِ
وَتَذَكَّرِي عَطَشَ الْحُسَيْنِ فَبَلِّئِي!
وَلِدَ الَّذِي لَوْ جَاذَبَتْهُ ضِيَاءُهُ
شَمْسُ السَّمَاءِ لَقِيلَ لِلشَّمْسِ اخْجَلِي!
وَمَنْ المَرْوَةَ بِيَدْرِ فِي بَيْتِهِ
وَلِكُلِّ أَهْلِ الْأَرْضِ حَبَّةٌ خَرْدَلِ!

وُلِدَ الَّذِي دُمُهُ أَعَزُّ دَمٍ جَرَى
لَوْلَا أَبُوهُ.. تَبَارَكَ اسْمُكَ يَا عَلِي!
أُنْجَبَتْهُ لِلْمَكْرُمَاتِ جَمِيعِهَا
وَسَقَيْتَهُ مِنْهُنَّ نَفْسَ الْمَنْهَلِ
وَرَأَى فُزَّتَ بِهَا، فَفَازَ بِهَا فَتَى
بِوَرَكَاتٍ مِنْ أَسَدٍ هَزَبَ مَشْبِلِ!

يَا يَوْمَ مِيلَادِ الْحُسَيْنِ وَهَبْتَ لِي
شَرَفَ الدَّخُولِ إِلَيْهِ أَجْمَلَ مَدْخَلِ
أَنْ التَّقِيهِ وَلَوْ لِيَوْمٍ وَاحِدٍ
فَجَرّاً بَهِيّاً لَا دِمَاءَ مُجَنَّدَلِ
أَفَكَلَّمَا ذِكْرَ الْحُسَيْنِ تَقَطَّعَتْ
أَحْشَاؤُنَا وَجَعاً وَصِحْحَنَا: يَا عَلِي؟

وكانَّ أوجاعَ العراقِ جميعَها
إرثُ الحسينِ فتأكلُ عن أتكُلِ!
يا سيدي، نفسي فِداك، أجزَ فَمِي
وبغيرِ هذا الدَّمعِ أنطِقَ مَقُولِي
أنا راجفٌ جزعاً فثبَّتَ لحظةً
قلمي على ورقي، وثبَّتَ أنملي
وأملاً دمي فرحاً، ووجداني نديً
ودعَّ الفُراتَ بمائِهِ المتوسِّلِ
يسعى إليك مُكفِّراً عن ذنبِهِ
ألفٌ ونيفٌ وهو أوجعُ مُهمَلِ
وهو الفراتُ.. لو استطاعَ أوانها

لَأَتَاكَ مَفْجُوعاً بِمَاءٍ مُّعْوَلٍ

وَهَوَى عَلَى قَدَمَيْكَ يَسْقِي مَاءَهُ

مِنْ جَسْمِكَ الْبِدْمَاءِهِ مُتَسَرِّلٍ

لِيَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ شَاهِدَ نَفْسِهِ

وَيُجِيبَ لَا مُتَعَثِماً إِنْ يُسْأَلَ!

هتف البشيرُ، فيا خَواْفُقُ رَتَّلِي

بِالنَّبْضِ مَا هتفَ البشيرُ، وبَسْمَلِي

وبكَلُّ أَرْضِ يَا مَرُوءَةَ زَغَرْدِي

فإِذَا وَصَلتِ لِكِرْبِلاءِ فَأَعُولِي!

* * *

- 197 -

في رحاب النجف الأشرف

١٩٩٢

شَرَفٌ لَيْسَ بَعْدَهُ شَرَفٌ
أَنَّكَ الْآنَ عَرْشُكَ النَّجْفُ
أَيُّهَا الْمُسْتَفْزَأُ أَجْنَحَةٌ
فِي رِحَابِ الْكَرَّارِ تَرْتَجِفُ
شَرَفٌ أَنْ كُلَّ بَارِقَةٍ
أَوْ رَفِيفٍ مِنْ رَهْبَةٍ يَجِفُ
بِجَنَاحَيْكَ أَنْ خَفَقَهُمَا

لِعَلِّيَّ بِالْحَبِّ يَعْتَرِفُ

شَرَفٌ لَيْسَ بَعْدَهُ شَرَفٌ

أَنَّكَ الْآنَ بَيْتُكَ النَّجْفُ

إِنْ تَكُنْ قَدْ وَقَفْتَ مُرْتَبِكاً

فَالنَّبِيُّونَ هَهُنَا وَقَفُوا

أَوْ تَكُنْ جِئْتَ نَازِفاً فَأَقِلْ

فَالنَّبِيُّونَ هَهُنَا نَزَفُوا

وَتَوَاضَعْ، فَكُلْ أُمَّلَةً

هَهُنَا فَوْقَهَا دُمٌ يَكِفُّ!

مِنْ عَلِيٍّ لِلْيَوْمِ هَاطِلَةٌ

تَحْتَهَا الرَّأْسِيَّاتُ تُتَخَسِفُ

فَاخْتَصِرْ إِنْ تَكُنْ أَتَيْتَ لَكِي

تُعَلِّنَ الحُزْنَ أَيُّهَا الكَلِفُ!

عَجَبِي يَا حَسِينَ كَيْفَ هُنَا

لَيْسَ يَحْمَرُّ لَوْنُهُ السَّعْفُ!

كَيْفَ تَبْقَى السَّمَاءُ صَاحِيَةً

هَكَذَا، وَالغُصُونُ تَتَعَطَّفُ

وَكأَن لَمْ يَكُنْ هُنَا مَطَرٌ

دَمُهُ عِدْلَ بَرْقِهِ يَلِيفُ!

تُرِيَةُ الأنبياءِ يَعِصِمُهَا

أَنَّهَا الآنَ فَوْقَ مَا أَصِفُ

كَلَّمَا أُمَّطِرَتْ زَهَتْ رُطْبًا

بَيْنَمَا حَمَلُ غَيْرِهَا حَشَفُ

سَيِّدِي يَا عَلِيُّ، مَعذِرَةٌ
أَنَا مِنْ رَاحَتَيْكَ أَرْتَشِفُ
أَبْلَغُ الْقَوْلِ أَنْتَ سَيِّدُهُ
وَالْوَرَى مِنْ نَدَاكَ تَغْتَرِفُ
فَإِذَا مَا وَقَفْتُ مُضْطَرَبًا
فَاعْذِرْنِ وَقَفْتِي الَّتِي أَقِفُ
أَنَا نُصَبَ الْجَلَالِ أَجْمَعِهِ
لِيَتِّي لِي بِظُلْمِهِ كَنَفُ
لَيْتَ مَاءَ الْفُرَاتِ يُصْبِحُ لِي
أَدْمُعًا فِي ثَرَاكَ تَذْرِفُ
أَيُّهَا الْحَاسِرُ الَّذِي أَبَدًا
بِشِغَافِ الْقُلُوبِ يَلْتَحِفُ

أَيُّهَا الْجَاسِرُ الْمَضَارِبُهُ
كُلُّ لَيْلٍ بِهِنَّ يَنْكَشِفُ

أَيُّهَا الْأَسِيرُ الْأَسِيرُ تُقَى
لَيْسَ إِلَّا اللَّهُ يَزِدُ لَيْفُ
هُوَ فَجْرُ الْإِسْلَامِ.. أَعْظَمُهُ
أَنَّه ذَلِكَ الْفَتَى الْأَنْفُ

الَّذِي عَنْهُ فَاتِحاً يَدُهُ
نَزَلَتْ مِنْ سَمَائِهَا الصُّحُفُ
وَالَّذِي مِنْهُ قَابِضاً يَدُهُ
شَعَفَاتُ الْقُلُوبِ تَشَعِفُ

وَالَّذِي مِنْ دُعَائِهِ انْفَطَرَتْ
بَابُ رَبِّي، وَانْجَابَتْ السُّجُفُ

الذي لو تَمَسُّ غَيْرَتُهُ
جَبَلًا قَلَّتْ سَوْفَ يَنْخَسِفُ

والذي سَيْفُهُ النُّفُوسُ بِهِ
قبلَ خَطْفِ العَيْرِ

ديوان المراثي - م ١٣

والذي إِذْ تَلُوحُ غُرَّتُهُ
كُلُّ شَمْسٍ فِي الكَوْنِ تَتَكَسِفُ
هُوَ فَجْرُ الإِسْلَامِ.. لَوْلَاهُ
أَلَّهُ، وَالْعَوَالِمُ الصَّدَفُ

يا ابنَ عَمِّ النَّبِيِّ لُطْفَكَ بِي
وَأَجْرَنِي، فَالليلُ يَنْتَصِفُ
وَأنا لَمْ أزلْ أرى قَلَمِي

وَيَدِي وَالسُّطُورَ تَرْتَجِفُ

أَنَا فِي حَضْرَتِكَ.. شَاخِصَةً

نُصِّبَ عَيْنِي هَذَا، وَذِي تَرَفُ

فِي ضُلُوعِي.. مُذْ كُورَتْ فَفَصَاً

وَضُلُوعِي عَلَيْكَ تَعْتَكِفُ!

فَأَقْلَنِي إِذَا كَبَّوتُ هُنَا

مِنْ خَشُوعِي.. وَتَعَذَّرُ النَّجَفُ!

* * *

يا نَجِيَّ الله!

ألقىت في الاحتفال المهيب الذي أقيم
في النجف الأشرف بمناسبة الذكرى
الثمانينية للشاعر والفقير والمجاهد
السيد محمد سعيد الحبوبي في
١٢/١٢/١٩٩٧.

أُعْفُ عَنِّي واقفًا بَيْنَ يَدَيْكَ أَيُّهَا الْمُشْرِفُ مِنْ عَالِي الدُّرِّ
أَنَا مِنْ أَرْضِي هُنَا أَرْنُو إِلَيْكَ بَيْنَمَا أَنْتَ سَمَاءٌ لَا تُرَى!

هكذا طيفُكَ لي لَيْلاً بَدَا
مثلَ نَجْمٍ لَفَّهُ غَيْمُ الرَّدَى
وتَلَلًا ضَووُهُ رَغَمَ المَدَى

مائلًا عيني بِوَمُضِي مُقَلَّتَيْكَ مالِكاً قلبي، دَرَى أو ما دَرَى

أنا طفلاً كنتُ هيمانَ عليكُ منذُ أن نَبَعُكَ في قلبي جرى!

مُذَّ «غزالِ الكَرخِ والكأسِ الهَنِي»

وَرَجَا صاحِبِهِ عبدِ الغَنِي

«إسْقِنِي واشْرَبْ أو اشْرَبْ واسْقِنِي»

مُنْذُها، والشَّعْرُ يُدِنِينِي إِلَيْكَ مانِعاً عن مُقَلَّتِي طَيْفَ الكَرِي

كَيْفَ أَعْتَى لُغَةَ الضَّادِ لَدَيْكَ تَسْتَوِي نَبْعاً وَتَجْرِي أَنْهْرًا!

يا نَدَى الحَرْفِ وَيَا حَرْفَ النَّدَى

وَيَدَ الحَقِّ جِهَاداً وَهُدَى

أنتَ كُنتَ الصَّوْتِ وَالدهْرُ صَدَى

والمُروءاتُ نَمَتَ في رَحَبَتَيْكَ سارياتٍ حَيْثُ مَرَقَاكَ سَرَى
أَيُّهَا العابِدُ طَاطِيءٌ عَارِضِيكَ قَلَّ أَنْ مِثْلَهُمَا مَسَّ الثَّرَى!

يا إِمَامَ الحُبِّ، ثُمَّ الغَزَلِ
يا مَنْ التَّقوى بِهِ تَقوى وَلى
سَيِّدِي أَفديكَ هَلَّا قُلْتَ لِي

كَيْفَ إِذْ تَحَنِي خَشوعاً يَحَنِي خَلْفَهُمَا كُلُّ الوَرَى
بَيْنَما الفِتْنَةُ تَغزُو ناظِرِيكَ «قَمَراً تَمّاً، وَظَبِيّاً أَعفَرا!»

زَعَمُوا أَنَّكَ لَمْ تَعشَقْ، وَلَمْ..
وَهُمُّوا أربابُ حَرْفٍ وَقَلَمٍ

تَرَبَّتْ أَقْلَامُهُمْ.. هَذَا الْأَلَمُ

وَالجَوَى هَذَا الَّذِي فِي جَانِحَيْكَ هَذِهِ الْأَوْجَاعُ.. كَانَتْ بَطْرًا!
أَمْ هُمُ مَا فَهَمُوا إِغْضَاءَتَيْكَ هَذِهِ تَقْوَى، وَهَذِي خَفْرًا!

مَنْ يَقُلْ عَنِ سِرْبِ غِزْلَانِ سَنِي

«يَتَبَّالْهَنَ وَقَدْ يَعْرِفْنَنِي»

«وَهُوَ فِيهِنَّ غَضِيضُ الْأَعْيُنِ»

إِنَّ مَنْ يَرُصِدُ مَا فِي نَظْرَتَيْكَ مِنْ وُلُوعٍ فِي خُشُوعٍ أُسْرًا
يَفْهَمُ الْجُرْحَ الَّذِي فِي بُرْدَتَيْكَ يَا شَهِيداً فِي الْهَوَى مَا أُجْرًا!

رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى شَيْخِي الْبَصِيرِ

كَانَ لِي فِي حَيْرَتِي نِعْمَ النَّصِيرُ

قَالَ لِي يَوْمًا: أَتَرْضَى أَنْ يَصِيرَ

صَاحِبُ الْغُرِّ الْأَثِيرَاتِ لَدَيْكَ جَاهِلًا بِالْحُبِّ مَقْطُوعَ الْعُرَى؟

قُلْتُ: كَلَّا وَالَّذِي أَوْحَى إِلَيْكَ هُوَ أَدْرَى فِيهِ مِنْ كُلِّ الْوَرَى!

سَيِّدِي، يَا أَطْهَرَ النَّاسِ يَدَيْنِ

وَأَعَفَّ النَّاسِ خَفَاقًا وَعَيْنِ

مِنْ مَعَانِي حَسَنٍ، أَوْ مِنْ حُسَيْنِ

مَلَأَ الْحُبُّ تَقِيًّا جَانِحِيكَ لِيُحِبَّ شَرْطًا أَنْ لَا يُؤْسِرَا

إِنَّ نِبْرَاسَ الْهَوَى وَقَفَّ عَلَيْكَ أَنْتَ فِي الْحُبِّ تَرَى مَا لَا نَرَى!

أَيُّهَا السَّاهِدُ قَلْبًا وَحَدَقَ

أَيُّهَا الْعَابِدُ وَقَّى وَصَدَقَ

أَيُّهَا الْوَاصِدُ بَابًا لَا يُدَقُّ

دُونَ أَنْ يَسْتَأْذِنَ السَّاعِي حَذْرًا، أَوْ خَفْرًا، أَوْ بَهْرًا

فَإِذَا قَبَّلَ فِي حُبِّ يَدَيْكَ فَكَأَنَّ قَبَّلَ كَفِّي حَيْدَرًا!

أَنْتَ يَا شِبَّهَ عَلِيٍّ فِي الْمِهَادِ

فِي تُقَاهُ، وَإِبَاهُ، وَالْجِهَادِ

وَالَّذِي عَوَّدَ عَيْنَيْكَ السُّهَادِ

إِنَّ مِنْ هَيْبَتِهِ فِي وَقْفَتَيْكَ خَاشِعًا لِلَّهِ أَوْ مُتَّصِرًا

صُورَةً تُسَبِّغُ مَعْنَاهُ عَلَيْكَ سَاجِدًا فِي دَمِهِ مُدَثِّرًا!

هَكَذَا جَدُّكَ فِي أَيَّامِهِ
تَسْطَعُ الشَّمْسُ عَلَى أَعْلَامِهِ
وَذُرّاً مَعْنَاهُ فِي إِسْلَامِهِ

وَبِمَعْنَاهُ قَرَأْنَا صَفْحَتَيْكَ فَرَأَيْنَاكَ بِهِ مُؤْتَزِرًا
حَامِلًا آيَتَهُ فِي أَصْغَرَيْكَ قَلْبَ لَيْثٍ وَلِسَانًا أَجْهَرًا!

يَا كَبِيرًا فِي التُّقَى وَالْغَزَلِ
يَا نَجِيَّ اللَّهِ مِنْذُ الْأَزَلِ
يَا بَقَايَا حَسَنٍ بَعْدَ عَلِيٍّ

كُلُّ مَنْ يَصْعَدُ مَرَقَى قَدَمَيْكَ حَامِلًا ضَوْءَكَ قِنْدِيلَ سُرَى

فَلَقَدْ أَنْبَتَ إِحْدَى حُسْنَيْكَ وَهَجَأَ فِي قَلْبِهِ أَوْ مَطَرًا!

سَيِّدِي، يَا سَيِّدَ الدُّنْيَا جَمِيعَا

يَا خَضِيبَ القَلْبِ دَمْعًا وَنَجِيعَا

أَيُّهَا الرَّأكِعُ لِلَّهِ صَـرِيعَا

أَنَا إِذْ أَطْرُقُ بِأَبِي مَحَبِّسَيْكَ مَحَبِّسَ العِلْمِ، وَحَبَسًا أَخْطَرَا

هُوَ حَبَسَ الرُّوحَ فِي اللّهِ لَدَيْكَ هَكَذَا القَدِيسُ يَسْعَى بَشْرًا!

هَكَذَا أَنْتَ عَظِيمٌ سَيِّدِي

أَيِّدٌ عَنِ أَيِّدٍ عَنِ أَيِّدٍ

أَنَا إِذْ أَحْمَلُ طِرْسِي بِيَدِي

مُنْشِداً مِسْكِينَتِي بَيْنَ يَدَيْكَ مِثْلَ مَنْ يَبِضِعُ تَمْرًا هَجَرًا
فَلَأُنِّي مُوْتَقُ الْقَلْبِ لَدَيْكَ فَاقْلَنِي عَائِثًا مُعْتَذِرًا!

أَيُّهَا الْقَلْبُ الَّذِي لَمْ يَجِفِ
لِسِوَى اللَّهِ، وَلَمْ يَرْتَجِفِ
سَيِّدِي، مِنْ عُمُقِ أَرْضِ النَّجَفِ

أَرْفَعُ الصَّوْتَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَيْكَ آمِلًا، مُبْتَهَلًا، مُسْتَغْفِرًا
فَسَلَامُ اللَّهِ مَوْلَايَ عَلَيْكَ مَا ظَلَامٌ عَنْ صَبَاحِ أَسْفَرَا!

هوامش

- كل ما بين الأقواس تضمنين من موشحات السيد المجاهد محمد سعيد الحبوبي.

- البصير: هو الدكتور محمد مهدي البصير (رحمه الله) وكان أستاذنا في الأدب في دار المعلمين العالية ببغداد، ورئيس قسم اللغة العربية فيها، وشاعر ثورة العشرين في العراق.

* * *

المحتوى

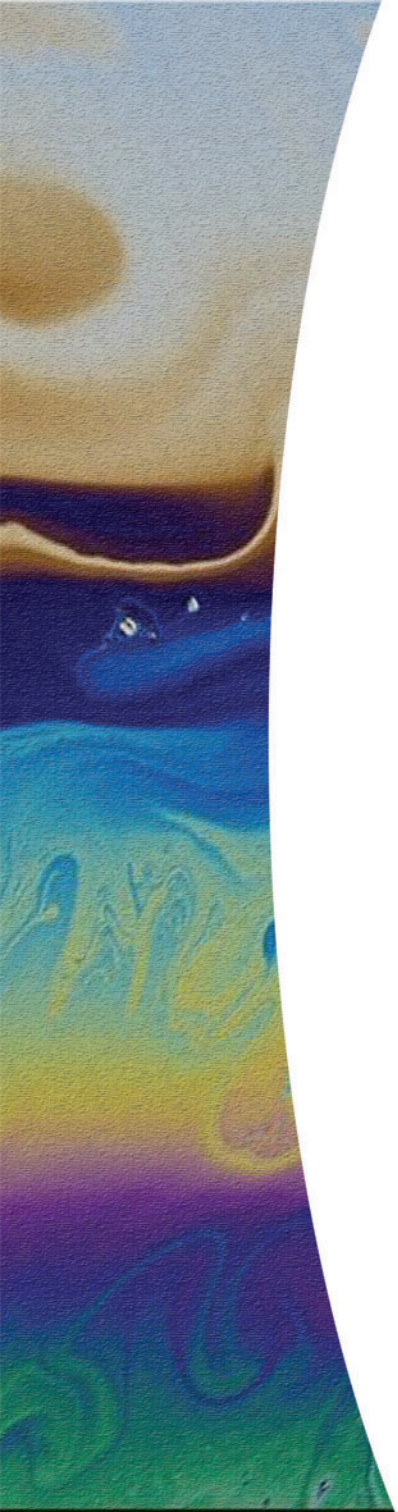
الصفحة

٥	يا شيخ غُرَيْبَتَا
١١	تنهضُ بين الحقائق
٢١	غَرَقُ الطُّوفانِ
٢٣	يا وارِفَ الظِّلِّ
٤٥	يا أيُّها القديسُ يحملُ صمتهُ حملَ الأذانِ!
٥٣	يا شيخَ شعري
٦٣	سلامٌ أبا فخري عليك
٧٣	النَّخْلُ لا تنحني إلا ذوائبُهُ
٨٥	بين يَدَي عبد الرحيمِ عمر
١٠١	وداعاً أبا سدير
١١٣	ألقِ الصَّمْت
١٢٣	كالبحرِ صوتك

يا شاديَ الأيِّك.....	١٣٧
الصفحة	
هَبها دُعاءكَ	١٤٩
في رحاب الحسين	١٦١
يا ماليء الدنيا دماً ومروءة.....	١٧٥
في رحاب النجف الأشرف.....	١٨٧
يا نَجِيَّ اللهُ!	١٩٧

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠

سعر النسخة ١٠٠ ل.س أو ما يعادلها